المكتبة الأكاديمية
شركة مساهمة مصرية
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
Certificate No.: 82210
03/05/2001

opeikandl.com

دروس للأمة
من هدي القرآن والسنة

obeikandl.com

دُروسٌ للأُمَّةِ

من هَدْيِ القرآن والسُّنة

فضيلة الشيخ

محمد الراوي

الناشر

المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

٢٠٠٨

obeikandl.com

obeikandl.com

حقوق النشر

الطبعة الاولى ٢٠٠٨م-١٤٢٨هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ١٨,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : ٣٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

لماذا الإسلام ؟

أخي المسلم:

لماذا ندعوا الناسَ إلى الإسلام ؟

لأنه دعوةٌ إلى كلمةٍ مستقيمةٍ عادلةٍ.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

دعوةٌ تُعلي من قيمةِ الإنسان، وتحفظُ كرامته بعبادة الله وحده وعدمِ الإشراك به، وتُقيم التوازن بين المجتمع الإنساني بمساواةٍ فطريةٍ لا يتفاوت الناسُ معها بجنسٍ أو لونٍ، ولا يتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله. وتلك هي عقيدةُ الإسلام التي يتمُّ بها الاستخلاف والتمكين في الأرض.﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ (٢)

وهذه العقيدة قد بُعِثَ بها الرسلُ جميعاً، وآمنوا بها، ودعوا إليها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣)

فلم يَبعث اللهُ نبيًّا – قط – بغيرها، ولا قُبِلَ عملٌ عند الله إلاَّ بها، ولا نجا ناجٍ

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) النور: من الآية ٥٥.
(٣) الأنبياء: ٢٥.

إلا بصدقِ الإخلاص لها، والوفاءِ لأمرها.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

والرسلُ جميعاً يؤمن بعضُهم برسالةِ بعض، ويُصدِّقُ بعضُهم بعضاً.

وقد أخذ الله ميثاقَهم، وأقرَّهم وأشهدهم. وصدقوا جميعاً في تبليغ ما أُمِرُوا به، وكانوا دُعاةً إلى الإسلام الذي لم يبعث الله نبيًّا - قط - بغيره.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الزمر: ٦٥، ٦٦.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) آل عمران: ٨١ - ٨٥.

ومَن يؤمنُ برسالة الإسلام - على هذا النحو الذي جاء به القرآنُ، وبيَّنَتْهُ سُنَّةُ الرسول ﷺ - ويجتنب ما نهاه الله عنه، ويؤدِّي ما أمره به، مُخلصاً في التَّرْكِ والأداء، يبتغي وجهَ الله، ويطلبُ رضاه. مَن يكون على هذا النحو فهو المسلمُ الذي يكون أهلاً للدعوة العالمية، التي لا تُفرِّقُ بين أحدٍ من رُسُلِ الله؛ لأن التفرقةَ - في حقيقتها - كُفْرٌ بهم جميعاً، وإنكارٌ لرسالتهم جميعاً.

وهم دُعاةٌ لدينٍ واحدٍ، وصَّاهم به، وأمرهم بإقامته، وحذَّرهم من التفرُّقِ فيه.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (١)

فالتفريقُ بين الله ورُسُلِه، والإيمان ببعضِ الرُّسُلِ دونَ بعضٍ، كُفْرٌ بالله ورُسُله، وإنكارٌ لرسالتهم جميعاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢)

فالعَالَمُ - من بدايته إلى نهايته - تجمعه وحدَةُ دينه، والفُرقةُ في الدِّين من صُنْعِ الأهواء والشهوات، ويبرأُ منها جميعُ الأنبياء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا

(١) الشورى: ١٣.
(٢) النساء: ١٥٠- ١٥٢.

﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

دينٌ واحدٌ بُعِثَ به الأنبياءُ جميعاً. وحقيقتُه واحدةٌ، لا يقبل التفرقة ولا التجزئة.

وبُنيانٌ واحدٌ - يُنسَبُ إلى الله الواحد - عَمِلَت فيه أيدي الأنبياء جميعاً بإذن الله الذي اصطفاهم، وهو أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته.

وما أجملَ الإنصافَ وأنت تسمعه من الصَّادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، وهو يقول: « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ » (٢)

وبتقرير هذه الحقيقة تُرَدُّ الإنسانيةُ إلى وحدةٍ صادقة، في ظلِّ توحيدٍ صادقٍ نادى به الرُّسُلُ جميعاً كما أمرهم الله. وهم بُرَءَاءُ من كُلِّ انحرافٍ أو ميلٍ عن هذه الحقيقة.

والإسلامُ - بعد تقريره لوحدة الدِّين - يُقرِّرُ وحدةَ الجنس والنَّسَب، فالناسُ إذا لم تَسَعهم أخوَّةُ الدين - وهي أرحَبُ من الكون - وَسِعَتهُم أخوَّةُ الأصلِ الواحد إنْ هم انعطفوا إلى الأصلِ والدم « كلكم لآدم، وآدم من تراب »

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأنعام: ١٥٩.

(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ رقم ٣٢٧١.

(٣) الحجرات: ١٣.

الإسلامُ دينُ الرسلِ جميعاً

أخي المسلم:

الإسلامُ هو دينُ الأنبياء والرُّسُلِ جميعاً. ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

إنه التوجُّه إلى الله ربِّ العالمين في خضوعٍ خالصٍ لا يشوبه شِرْكٌ، وفي إيمانٍ واثقٍ بكُلِّ ما جاء من عند الله على لسان رُسُله وأنبيائه، دون تفرقةٍ بين رسول ورسول.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢)

أنها كلمةٌ واحدة ينتسبُ الناس جميعاً إلى حقيقتها، فلا تقوم بينهم عصبيةُ الدم، أو فُرقةُ الجنس واللون؛ لأنها مجرَّدة من النسبة إلى إنسانٍ أو زمانٍ أو مكان.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ (٣)

إن أهلَ الكتاب يجدون في هذا الدِّين تكريمَ أنبيائهم. فالنصرانيُّ يجدُ في هذا الدين تكريمَ عيسى عليه السلام، واليهوديُّ يجدُ فيه الإشادةَ بموسى عليه السلام، كما يجد الإيمانَ

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) البقرة: ١٣٦.

(٣) آل عمران: من الآية ١٩.

برسل الله جميعاً بلا تفرقة؛ لأن التفرقة بينهم - وهو يُدْعَوْنَ إلى دينٍ واحدٍ - كُفْرٌ بحقيقة الدين، وخروجٌ عن العهد الذي أُخذ عليهم جميعاً.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١)

إن النبيَّ ﷺ على سُنَّةِ مَن سبقه من الرُّسل. سُنَّةِ أولئك الذين هداهم الله، والرسل جميعاً لم يشرع الله لهم غيرَ الإسلام، ولم يأتِ خاتمُهم ﷺ إلاَّ بتمام هذه النعمة التي رَضِيها اللهُ لعباده ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (٢)

بـــه نادَى جميعُ الرسل، وإليه ينتسب المؤمنونَ من أتباعِهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٣)

ذاكَ هو طريقُ الأنبياء جميعاً.

---

(١) آل عمران: ٨١ - ٨٣.
(٢) الشورى: من الآية ١٣.
(٣) النساء: ١٥٢.

والمفرِّقُونَ بينهم قد خرجوا من الإيمان بهم جميعاً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (١)

إنه الإسلامُ دينُ الرسلِ جميعاً. به أُمروا، وعليه بُعثوا ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

نوحٌ عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣)

وإبراهيمُ عليه السلام ﴿ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٤)

ويعقوبُ عليه السلام يوصي بَنيه: ﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (٥)

وأبناءُ يعقوب يُحيُّون أباهُم، وهو يسألهم وقد حضره الموتُ: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا

(١) النساء: ١٥٠- ١٥١.
(٢) آل عمران: ٨٥.
(٣) يونس: من الآية ٧٢.
(٤) آل عمران: من الآية ٦٧.
(٥) البقرة: من الآية ١٣٢.

وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١)

ويوسفُ عليه السلام يدعو ربَّه: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٢)

والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) البقرة: من الآية ١٣٣.
(٢) يوسف: من الآية ١٠١.
(٣) آل عمران: من الآية ٥٢.

obeikandl.com

حاجةُ الإنسانية إلى الإسلام (١)

أخي المسلم:

الإنسانيةُ في حاجةٍ إلى الإسلام؛ يُبيِّنُ غايتَها، ويُحدِّدُ حقوقَها وواجباتِها، ويقُودها إلى الأمنِ والسلامِ، ويهديها - في جميع شئونها - للتي هي أقوم.

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

إن أهواءَ الناس إذا لم تُقَدْ بهذا الدِّين وتهتدي بنُوره، أَوْدَتْ بأصحابها في مكانٍ سحيق. ولكُلِّ نفسٍ هواها، ولها شيطانُها، وللشيطان جُنْدٌ وحِزْبٌ.

وفلاحُ الإنسانِ في تغليبِ الدِّينِ على هوى النفس.

وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَنْصُرَ اللهَ في مَعْرَكَةٍ حَتَّى نَنْصُرَهُ في أَنْفُسِنَا، بِتَغْلِيبِ أَمْرِهِ عَلَى هَوَانَا. ولن تُقادَ الإنسانية إلى الفلاح بالأهواء، ولن يصلُح شأنُها إذا استحوذَ عليها الشيطانُ فأنساها ذِكْرَ الله.

وتبصرةُ الإنسانية وهدايتها إلى ما يجب أن يكون تحتاجُ إلى الإيمان بما أوحى الله إلى أنبيائه، وما أنزل من كتابٍ.

وفي الآفاق وفي الأنفسِ آياتٌ تدعو إلى الحقِّ، وفيها تبصرةٌ وذكرى لكُلِّ عبدٍ منيب.

---

(١) المائدة: ١٥، ١٦.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (٢)

الناسُ جميعاً مُطالَبونَ بالتدبر. تدبُّرِ آيات الكتاب المبين ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٣)

والناسُ جميعاً يُخاطَبون بآياتِ الله في الآفاق وفي أنفسهم. وهي ذاتُ تأثيرٍ في حياتهم – بإذن الله – وعليها يتوقَّفُ وجودهم ومعاشهم، وفيها تبصرةٌ لهم وهدايةٌ إلى ما يجبُ أن

(١) الأعراف: ٥٤ – ٥٦.
(٢) غافر: ٦٤– ٦٦.
(٣) ص: ٢٩.

يكون من إيمانٍ واستقامةٍ، وتعاونٍ على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾ (١)

والإنسانيةُ جميعاً في حاجةٍ أن تستجيبَ لنداءِ الله، وأن تؤمنَ بدعوته، وأن تتعاون على تحقيقِ ما دعاها إليه وأمرها به؛ لتسلمَ من الشحناءِ والبغضاء، والفُرقةِ والتنازع، ولتُقيم روابطها على أساسٍ ثابتٍ من القِيَم والفضائل، وابتغاء مرضات الله.

وواجبُ المسلمين أن يُبيِّنُوا للناس ما أنزل الله على نبيِّهم، وأن يدعوهم إليه (بأقوالهم وأعمالهم)، وأن يُبصِّروهم - في كُلِّ شأنٍ - بما يجب أن يكون.

واجبُ المسلمين أن تكون روابُطهم أُسوةً لغيرهم، وأن يكونوا حيث ينشُدهم دينُهم، إخوةً متحابين، ودُعاةً صادقين.

واجبُ المسلمين أن يُقدِّروا مسئوليتهم في النهوض بهذا الدِّين، واستنقاذِ الناس به. ومَن أيقنَ بالحسابِ خافَ العذاب.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم

(١) ق: ٦ - ١١.

بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]

واجبُ المسلمين – في عصرنا هذا – ألاَّ يعيشوا عَالةً على أمجادِ ماضيهم، وإن وَجَبَ عليهم أن يذكروها؛ لتكون نبراساً لحاضرهم، وهدايةً لواقعهم..

وإنما الفتى مَن يقول: ها أنذا، لا مَن يقول: كان أبي.

إن الإنسانيةَ – وهي تقفُ على شَفَا حُفرة من النار والدَّمار – في حاجةٍ إلى الإسلام؛ لتخرج من ظلماتِ الحيرة والضياع إلى سبيل السلام.

في حاجة إلى من يَدُلّها على الصراط المستقيم.

فهلْ آنَ للمسلمين أن يعرفوا قَدْرَهم، ويُقدِّروا رسالتهم، وأن يؤدُّوا ما عليهم ؟

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2] إنَّ كُلَّ شيءٍ في واقعهم – وفي حياة الإنسانية من حولهم – يدعوهم أن يكونوا مسلمين. وهذا نداءُ الله لهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[3]

---

(١) الأعراف: ٦ – ٩.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

حاجة الإنسانية إلى الإسلام (٢)

أخي المسلم:

إن الإنسانَ في هذه الحياة لا يعيشُ وحده، بل يتعامل مع الناس، ويحتاج إلى الأشياء من حوله.

وللإنسان مطالبُه ورغباتُه، وله أشواقُه ونزعاتُه. ولا بُدَّ من قانونٍ عادلٍ - يقومُ بين الناس - يحولُ بين الرغبةِ والبغي، وبين النـــزعةِ والتسلط.

ولن يكون هذا القانون عادلاً وهو من وَضْعِ الناس؛ لأنهم هم أصحاب النـــزعات والرغبات، ولن يسلموا - بحالٍ - من هوىً أو ضعفٍ، وإنْ سَلِمُوا فلن يُحيطوا علماً بأحوال الناس وشئونهم.

إن التشريعَ العادلَ بين العالمين لا يكون إلاَّ من الله ربِّ العالمين.

والإنسانُ له دائماً تساؤله الفطري - وهو يرى أمرَه بين الموت والحياة، يُقيم في الدنيا أيَّاماً محدودة، ثم يرحلُ - لماذا جئتُ إلى الحياة ؟ وإلى أين المصير ؟

فمَن ذا الذي يجيبُ عن تساؤله، ويُبيِّنُ له أن الحياةَ الدنيا لا تُمثِّلُ إلاَّ مرحلةً محدودة، ويبرزُ ما في الغيب، إلاَّ مَن أحاط بكُلِّ شيءٍ علماً ؟

ومن العبث أن يُخاطَبُ الإنسانُ بأسلوبِ الإهمال لغَده، والغفلةِ عن مستقبله، ودوافع الفطرة فيه ترفض أن يكون خَلقه لدنيا محدودةٍ مكدودة.

﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

(١) ص: من الآية ٢٧.

وأيُّ تعاسةٍ تحيق بالإنسان إنْ وقفَ عند مرحلة الحياة الدنيا وحدها، دونَ نظرٍ إلى ما وراءها ؟

إن الإنسانية - والحالة هذه - لا بُدَّ أن يسيطرَ عليها الهوى، وأن يغمرها طوفانُ البغي والتسلط.

إن مَن يرى أنها دُنيا فحسب لا بُدَّ أن يحظى منها بأوفرِ نصيب، بأيِّ سببٍ ومن أيِّ طريقٍ.

فمرحباً بالظلم إنْ حقَّق لذَّةً !

ومرحباً بالغدر إنْ أحرز غنيمةً !

مرحباً بأيَّةِ صفقةٍ تأتي بمنفعةٍ ذاتيةٍ عاجلة !

بل، وا حسرتاه إنْ فاته المطلوبُ أو أبطأ المرغوبُ !!

إنَّ أمْنَ الدنيا وسلامَها يتوقف على الإيمان بالآخرة، والسعي لها.

والإنسان - بدافعٍ فطريٍّ - ينشُد الأمنَ لنفسه في جميع مراحل سيره، ينشده وهو يحيا بين الناس في مرحلةِ الحياة الدنيا، وينشده بعد موته.

ولا أمْنَ بغير الإيمان، ولا سلامَ بغير الإسلام.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

ومن رحمةِ الله بالناس أن جعل سعادتهم في الآخرة مرتبطة بخيرِ أعمالهم وصالحها

(١) الأنعام: ٨٢.

في الدنيا؛ لينعمَ الناسُ بالحياة الطيبة في العاجلة، وبالجزاء على خيرِ أعمالهم في الآخرة.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

والناسُ في الدنيا تتفاوت رغباتُهم، وتختلف نزعاتهم، وتتعدد مذاهبهم.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٢)

والإنسانية - بدافعٍ من الضرورة - تبحثُ عن أسباب أَمْنِها؛ حتى لا يؤدِّي بها الصراعُ إلى دمارٍ مسيطِرٍ.

إنها في حاجة إلى دعوة صادقة تحترم قيمةَ الإنسان، وتُقدِّرُ حُرمته، وتحوطُه بسياجٍ من اليقين، وتطبعه على البِرِّ والرحمة.

في حاجة إلى دينٍ يكون الناسُ جميعاً أمام عَدْله سواء. لا يُفرِّقُ بين جنسٍ وجنسٍ، ولونٍ ولون، كما لا يُفرِّقُ - في عَدْله - بين عدوٍّ وصديقٍ، وقريبٍ وبعيد.

إنها في حاجةٍ - إذن - إلى (الإسلام)..

إن الإنسانيةَ لا تفقد أسبابَ أمْنِها إلاَّ حين تفقد (الإنسانَ).

الإنسان الذي يحيا بمعاني إنسانية، ويتفاعل مع الكون بفطرته.

الإنسان الذي يرى قيمَتَه فيما يُقدِّمه من عملِ الخير، وما يُحقِّقه في مجال الإنسانيةِ من برٍّ.

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) يوسف: ١٠٣

الإنسان الذي يُدركُ صلته بالكون، ولا يجحد خَالقه، ويُدرك حقيقةَ نفسه، ويعرف غايتها.

الإنسانية في حاجة إلى الإنسان الذي يؤمنُ بالخَالق، فيبرّ بالمخلوق. ولن يتحقّق وجودَ هذا الإنسان إلاَّ بالإسلام..

الإسلامُ الذي يُقدِّرُ حُرمةَ العهدِ والميثاق، ويجعل الوفاءَ بهما من صميمِ الدين.

الإسلامُ الذي يُقيم علاقات الدول لا على التقاتل والخصومة والتنابز، بل على الرحمة، والعدل، والتعاون.

ولا يمنع اختلاف العقيدة عنده أن تلتقي الإنسانيةُ على صلة الرَّحِم، وهو يأمر أتباعه بأن يحقّقوا العدلَ والبرَّ في جميع الأحوال.

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ (١)

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

إنه الإسلامُ، دين الفطرة الذي ارتضاه الله لعباده، ولن يقبل منهم غيرَه.

---

(١) المائدة: من الآية ٢.

(٢) المائدة: من الآية ٨.

(٣) الممتحنة: ٨.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

إن الكونَ كُلَّه مسلمٌ بفطرته، خاضعٌ لله، مُسبِّحٌ بحمده.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ (٣)

والذين يبتغون غيرَ الإسلام ديناً يَقَعُون في التناقض مع أنفسهم، بين خضوعهم لأمر الله بالفطرة، ومخالفتهم له بالإرادة. بل يعلنون عداءَهم للكون كُلِّه، ويُعرِّضون أنفسهم للحساب بين يدي ربِّهم.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٤)

ولقد اقتضت إرادةُ الله أن ترتبط حياةُ الناس بهذا الدين، وأن تتوقَّفَ سعادتُهم عليه.

إنه الحقُّ.. وماذا بعد الحقِّ إلا الضلال ؟

إنه النورُ.. وماذا بعد النور إلا الظلام ؟

إنه الحياة.. فماذا يكون الناس بغير الحياة ؟

---

(١) آل عمران: ٨٥.
(٢) يس: ٤٠.
(٣) الإسراء: من الآية ٤٤.
(٤) آل عمران: ٨٣.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢)

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣)

إن الإنسانيةَ في حاجة إلى التراحم. ومن رحمة الله بعباده أنْ أرسل الرسولَ رحمةً للعالمين. أرسله بالحقِّ بشيراً ونذيراً، وأنزل معه الكتابَ والميزانَ؛ ليقوم الناس بالقسط.

ومن رحمة الله بعباده أن تكفَّل بحِفْظِ كتابه؛ لتجد الإنسانيةُ - دائماً - أسبابَ تراحمها، وميزانَ عَدْلها.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الأنعام: من الآية ١٢٢.
(٢) الشورى: من الآية ٥٢.
(٣) فاطر: ١٩- ٢٢.
(٤) آل عمران: ١٠١، ١٠٢.

منهج القوة في الإسلام

أخي المسلم:

إن القوَّةَ التي طالبَ الإسلامُ بها، وأمر أتباعَه أن يُحقِّقوها، قوَّةُ أمْنٍ تحرسُ الحقَّ وترعاه، وتُردعَ الظُّلْمَ ولا ترضاه.

إنها لا تصدرُ عن هوىً أو تسلُّط. وإنما تصدُر بأمر الله الذي حرَّم الظلمَ عن نفسه، وجعله مُحرَّماً بين خَلْقه. ونادى العبادَ جميعاً على لسان نبيِّه ﷺ: « يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا » (١)

فهي قوةٌ تُقيم العدلَ في الأرض، وتحقِّق الأمنَ بين الخَلق.

إن القوَّةَ في الإسلام غايةٌ. وغايتُها سبيلُ الله، وهدفُها تأمين الحياة بين الناس بقيام العدل بينهم، وردِّ الظُّلمِ عنهم.

ولا عجبَ حين يجبُ الجهاد ويُفرَض على المؤمنين، أن ترى الهِمَمَ صادقةً تَفرُّ إلى الله؛ تطلبُ نصره، وتنشُد رضاه. لا تبتغي منفعةً زائلةً، وإنما ترجو إعلاءَ كلمة الله بين الناس. وجزاؤها على نِيَّتها « وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » (٢)

وقد سُئل الرسولُ ﷺ فقال: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٣)

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٧٤.

(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، رقم ١.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم ٢٥٩٩.

ومن هذا يستبينُ الدَّافعُ، وتتحدَّد الوجهة، ويقعُ الجزاءُ، وترى من المؤمنين عَزْماً ثابتاً، وتجرداً صادقاً، وبسألةً في الإقبال على الله تُعلي كلمتَه، وتطلب رضاه؛ فإن النصرَ لا يُطلَبُ من الله وفي النفسِ عُجْبٌ أو سُوءُ قَصْدٍ، ولا تغني الكثرةُ ولا العَتَاد إذا لم ينتصر أمرُ الله على هوى النفس.

إنَّكَ لَنْ تنصُرَ اللهَ في معركةٍ حتَّى تنصُرَه في نفسِك، بتغليبِ أمرِه على هَوَاك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ (١)

ومع الصدقِ يفوز المؤمنُ بنصرٍ أو شهادةٍ.

وهذه وصيةُ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين ولاَّه إمارةَ الجيش بالعراق، قال له: « يا سعد بن وهيب، لا يغُرَّنَّكَ من الله أن قِيلَ خال رسول الله ﷺ وصاحبه؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يمحو السَّيئ بالسَّيئ، ولكن يمحو السَّيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلاَّ طاعته، شريفُهم ووضيعُهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم وهم عبادُه، يتفاضلون بالعاقبة، ويُدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمرَ الذي رأيتَ النبي ﷺ - منذ بُعث إلى أن فارقنا - فالزمه؛ فإنّه الأمر. هذه عظتي إيَّاك، إن تركتها ورغبت عنها، حبِط عملُك، وكنتَ من الخاسرين » (٢)

وتدور المعارك التي يتقرَّرُ فيه المصيرُ، والخليفةُ يترقَّبُ رسولاً من قِبَلِ سعد يُخبره بأمر المسلمين، وبينما هو في خارج المدينة ينتظر، إذْ رأى رجلاً يَحُثُّ دابته، فسأله: من أين ؟ قال: من العراق. قال عمرُ: ما فعل الله بالمسلمين ؟ قال: هَزَمَ الله عدوَّهم.

---

(١) محمد: ٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٨٢/٢، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

كُلُّ ذلك والرجل مُسْرِعٌ بدابته، والخليفة العادل يجري خلفه، حتى دخلا المدينة، وأدرك الرجلَ أنه عمرُ أمير المؤمنين ! فقال: هلاَّ أخبرتني، رحِمَك الله. قال عمرُ: لا عليك يا أخي. هاتِ ما عندك.

و تسلَّم عمرُ رسالةَ سعدٍ وفيها ما ينبئك بسلوك المسلمين في جهادهم، ومنهجهم في ميدانهم.

كتب سعد إلى عمر يقول – بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه – أما بعد: « فإن الله نَصَرَنَا على أهلِ فارس، ومَنَحَهُم سنَن مَن كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتالٍ شديد، وقد لَقُوا المسلمين بعُدَّةٍ لم يَرَ الرَّاءون مثلَ زُهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار وفي الفجاج، وأُصيب من المسلمين فلانٌ وفلانٌ، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، وكانوا يُدَوُّون بالقرآنِ إذا جنَّ الليل دَوِيَّ النَّحْلِ، وهم آسادُ الناس، لا يشبههم الأُسود، و لم يَفْضُل مَن مضى منهم مَن بقى إلاَّ بفضل الشهادة، إذ لم تُكتب لهم »(١)

إن المسلمينَ ما انتصروا إلاَّ بقوَّةِ اليقين، ولا سَادُوا إلاَّ بصدقِ الغاية وطُهْرِ الوسيلة، ولا استطاعوا أن يُقَوِّضوا عروشَ الأكاسرة والقياصرة إلاَّ بقوَّةِ الحقِّ، وعدلِ السلوك. وما كانت سيوفُهم لتغني عنهم شيئاً إنْ هم حاربوا القومَ بمثل إيمانهم، أو سلكوا في الناس مسلك أولئك الذين إذا دخلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلَّة.

إنهم حاربوا ومن ورائهم قوَّةُ الدَّفْع: إيمانٌ ناهضٌ، ويقينٌ ثابتٌ. وأمامهم شرفُ القصد في سبيل الله وابتغاء مرضاته. فالإيمان يحوطهم بدوافعه ونتائجه، يمنح النفسَ قوَّةَ

(١) المرجع السابق: ص ٤٣٤.

العزم والثبات، ويجعلها في مرتبةٍ – من إعزاز الله لها – لا تُدانيها مرتبةٌ.

الإيمانُ – بدوافعه ونتائجه – هو سِرُّ النصر والفوز في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

إنه يجعل المسلمَ بارًّا في جهاده، بارًّا في سِلمه وحَرْبه. إنْ قاتَلَ ذَكَرَ ربَّهُ، وإن انتصرَ ذَكَرَ ربَّه ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: إن الإنسانية التي تُعاني من سرطانِ الفُرقة الكَذُوب، ومن وباءِ العبودية المارِقة – عبودية الإنسان للإنسان– لا يمكن أن تُحَلَّ قضاياها إلاَّ في ضوء هذه الحقيقة الفطرية الرَّاشدة التي تَنَادَى بها الأنبياءُ جميعاً « لا إله إلا الله، وحده لا شريك له »

وبها يُزاحُ عن الفطرة ظلامُ الشرك، وتُرفَع عن البصيرة غشاوةُ الإفك، ويجد الناسُ أنفسَهم أمامَ أخوَّةٍ راشدة، لا يبغي فيها أحدٌ على أحد، ولا يفخرُ أحدٌ على أحد. وقد قال ﷺ في وَسَطِ أيَّامِ التَّشْرِيقِ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى » (٣)

لقد هبتْ نَسْمَةُ الجاهليةِ يوماً في لَفْظٍ صَدَرَ من أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو في ثورةِ

---

(١) غافر: ٥١.

(٢) الحج: ٤١.

(٣) أحمد: باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ رقم ٢٢٣٩١.

غضبٍ مع بلالٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال أبو ذرٍّ لبلال: « يا ابنَ السَّوداء » فشكاه بلالٌ لرسول الله ﷺ، فقال الرسولُ لأبي ذرٍّ: « يَـا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّه ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَـاهِلِيَّةٌ » (١) فتداركَ أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطأً ما فعل، وأصرَّ أن يضعَ خَدَّهُ على التراب، وطلب من بلالٍ أن يطأ وَجْهَهُ؛ ندماً وتوبةً.

« **لا إله إلا الله، وحده لا شريك له** » نداءُ العقيدة، وجوهرُ الإسلام، وأصلُ الفطرة. نداءٌ هَتَفَ به الأنبياءُ جميعاً، وبه ومن أجله تقومُ القوَّةُ العادلة؛ لتدفعَ الظلمَ، وترفع لواءَ الحق والعدل. وبه يتمُّ التآلف، وتنكشف الغُمَّةُ، وينحَسِرُ البغي.

فهل يعي المسلمون أسبابَ قوَّتهم؟ وهل تعي الإنسانيةُ منهم طريقها إلى النجاة وسبيلها إلى الفلاح ؟

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢)

* * *

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، رقم ٢٩.
(٢) العنكبوت: ٦٩.

علاقة المسلم بغير المسلم

أخي المسلم:

الإسلامُ دينٌ عالميٌّ.

يُبرهِنُ كُلُّ شيءٍ على صدقِ هذه الحقيقة، كما تبرهِنُ نظرتُه لمخالفيه على أصالةِ الاتجاه إلى تحقيقِ أخوَّةٍ إنسانيةٍ عامَّة ينعَمُ الناسُ بها على اختلاف عقائدهم، وتباين مذاهبهم.

فهو لا يُكره أحداً على عقيدته، ولا يحمله على اتِّباع مذهبه.

يعرض فكرتَه في سماحةٍ، ويدع للناسِ أن يختاروا لأنفسهم.

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١)

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ (٣)

إنَّ الإكراهَ لا تستبين معه نتيجةٌ، ولا يصح مع قيامِه حُكمٌ. ولذا فقد أسقط الإسلامُ إيمانَ المُكْرَه من حسابه، ولم يُقِم له وَزْناً.

لا قيمةَ لإيمانٍ يقعُ نتيجة قَسْرٍ أو اكراهٍ. كما أنه لا مؤاخذةَ في كُفْرٍ يُعلَن نتيجةَ

---

(١) الكهف: من الآية ٢٩.
(٢) آل عمران: من الآية ٢٠.
(٣) البقرة: من الآية ٢٥٦.

ضغطٍ، والقلب مطمئنٌ بالإيمان.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (٢)

وما ذلك إلاَّ لأنَّ الإسلامَ حقيقةٌ لا يصحُّ مع قيامها ضغطٌ أو إكراهٌ؛ لأن فطرته تأبَى ذلك، وتتنافى معه.

وواقعُ الأمر - في التطبيق العملي - لا يُعطي أيَّ دليلٍ للحاقدين عليه والذين يرمُونه بأنه دين قتالٍ وحربٍ.

إنَّ الإكراه قد وقع في الصدِّ عنه، ولم يقع للدخول فيه. والذين آمنوا به آثروه على أنفسِهم وأموالهم، ولم تصرفهم عنه ألوانُ العذاب وصنوفُ البلاء.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (٣)

إنَّ لهذا الدِّين سلطانٌ على القلوب. يغزُوها حيثُ لا دولةَ ولا سلطان، ويطوِّعها للخير - وهي ترى حياتها فيه - فتحوطه بكُلِّ غالٍ وتَفْديه.

وقضيتُه تُعرَض على الفِكر والقلب؛ ليقطع فيها بالقبول أو الرفض.

---

(١) غافر: ٨٤، ٨٥.
(٢) النحل: من الآية ١٠٦.
(٣) البقرة: ٢٠٧.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ (١)

سبيلُه سبيلُ الحُجَّةِ والإقناع.

ولم يدخل في وسائل الإقناع أيُّ لونٍ من المعجزات المادية التي تبدو إرادةُ الإنسان معها وكأنها مُقادة ومُرغمة على الخضوع.

لم تكن معجزة الإسلام إلا معجزةُ فِكرٍ وعلمٍ، معجزةُ كتابٍ ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

إنه دينُ سلامٍ ورحمةٍ، يرفض البغيَ، ويُنكِرُ العدوانَ بين معتنقيه أو مخالفيه.

ألا تراه حين يُرغِمُ على القتال يوجِّهُ لأتباعه قولَه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٣) ؟

ولا تعتدوا عَلى مَن ؟ على مقاتليكم. فما بالُكَ مع غيرهم؟

وهذه ساحته يأوي إليها المشركُ مستجيراً خائفاً، فيؤمِّنه، ولا يستغل نقطةَ الضعف فيفرض عليه أن يقبل هذا الدين أو يدخل فيه ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ﴾ (٤)

والإسلامُ مع كونه يمدُّ يدَ السِّلم، ويقومُ على المودَّةِ والرحمة، يأبَى - كُلَّ الإباء

(١) البقرة: من الآية ٢٥٦.
(٢) فصلت: ٤٢.
(٣) البقرة: ١٩٠.
(٤) التوبة: ٦.

- أن تُداسَ مقدساتُه، وأن تُصادَر حريته، وقد حفظها للآخرين.

يأبَى أن يقوم السلمُ على حسابِ هَضْمِ الحقوق. فتلك مسالمةٌ يأباها الإسلامُ؛ لأنه يأبى الظلمَ في أيّةِ صورةٍ، لمتبعيه أو مخالفيه على السواء.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

أرأيتَ كيف أمرَ بقتالِ الفئة الباغية ولو اتُّصفت بالإيمان ؟ وأمر بالعدلِ في إقامة الصلح بعد الرجوع عن البغي أو التخلُّص منه !

هذه حاله مع متَّبعيه، لا يرضى أن يقوم باسمه بغيٌّ، أو يقعَ بين العباد ظلمٌ.

ولذا فإن العلاقة مع غير المسلمين - مع كونها تقومُ على المسالمة والبرِّ والرحمة - ليست مُسَالَمَة الضعيف، أو بِرَّ الخائف، أو مودَّةَ الذليل، أو رحمةَ السلبية والعُزلة.

إنها لو كانت كذلك لفقدت الكلماتُ مدلولها؛ فإن مسالمة الضعيف (ضعفٌ)، وبِرَّ الخائف (خوفٌ)، ومودَّةَ الذليل (مَذَلَّةٌ)، ورحمةَ السلبيّ (سلبية).

إن الإسلام يسالمُ وبيده القوة، ويبرُّ وهو في مَنَعَة. لا يُرائي أحداً، ولا يخشى بأسَ أحدٍ، ويبسط يدِ المودَّةِ عن اعتزاز بالله وإيمان، لا عن ذِلَّةٍ أو صغار. ويرحمُ وهو يتفاعل في مجالات الحياة المختلفة؛ لتعُمَّ الرحمةُ، وتتحقَّق في نفوس الناس وسلوكهم.

ومن هنا كانت القوَّةُ التي طالب الإسلامُ بها - وأمر أتباعَه أن يُحقِّقوها - قوَّةَ

(١) الحجرات: ٩.

أَمْنٍ تحرس الحقَّ وترعاه، وترد الظلمَ ولا ترضاه. لا تصدر عن هوى أو تسلط، وإنما تصدر بأمر الله الذي حرَّم الظلمَ على نفسه، وجعله مُحرَّماً بين خَلقه، ونادى الخَلق على لسان نبيِّه ﷺ: « يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا » (١)

إن الإسلامَ لا يتَّخذُ من اختلاف الناس سبيلاً للتنافر أو التناكر. بل يتَّخذ منهم سبيلاً للتعاون والتعارف، ويُقيم - بين الناس جميعاً - أسبابَ مودَّةٍ تُظلها حريةُ الفكر، وعدالةُ السعي، وأمنُ الإخاء، وأمانةُ الوفاء، ورحمةُ الله.

والدِّينُ الذي يطلب الإنسانَ على هذه الصورة، ويُربِّيه على هذه الحقيقة، لا بُدَّ أن يكون ديناً عالمياً ينشد البرَّ للإنسانية جميعاً، ويُحقِّق الخيرَ للخَلق أجمعين.

والدِّينُ الذي تبرُّ غايتُه بالإنسانية كُلِّها، وتقوم وسائله على تحقيق الغاية في طُهْرٍ وعدلٍ، لا بُدَّ أن يكون رحمةَ الله المهداةِ للعالمين.

والمسلمُ مطالَبٌ أن تقوم علاقته - في جميع المجالات، ومع جميع الناس - على أساسٍ من دينه، فلا يُفرِّقُ بين جنسٍ وجنسٍ، ولونٍ ولون. بل يجعل العدلَ أساساً لمعاملته مع الناس جميعاً، والرحمةَ شاملة لكُلِّ مخلوق « إنما الرحمة للكافة »

ووقوف المسلمين عند حدود دِينهم وإعلائهم عنه - في ثقةٍ واعتزازٍ - جديرٌ أن يصونَ العدلَ في دُنيا الناس، واعتصامُهم بحبل الله وعدم فُرقتهم سبيلٌ لدرءِ الفتنة، وردعِ الفساد.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) سبق تخريجه.

وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [1]

والمسلمون إنْ هُم صدقوا في ذلك، فإن الإنسانيةَ - وهي تنشدُ النجاةَ - ستَلُوذُ بساحتهم؛ لتأمَن بعد خوفٍ، وتسلم من ظلمٍ وبغيٍ. ولن تجدَ غير الإسلام يعصمها من فُرقة الجنس، وسفاهة التناكر، وتنابُزِ البغضاء. لن تجدَ غير الإسلام ينظِّمُ علاقتها مع اختلاف أجناسها وعقائدها، فيجعل العدلَ أساساً للتعامل في الحُبِّ والبُغض، ويجعل الوفاءَ بالعهد أصلاً في الصلات بين الرَّحم والأفراد، كما يجعل المودَّة والرحمة أصلاً في العلاقة بين الإنسان والإنسان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [2]

* * *

(١) الأنفال: ٧٣.
(٢) الحجرات: ١٣.

الإيمان والحياة

أخي المسلم:

لقد خَلَقَ اللهُ الإنسانَ، وكرَّمه، وفضَّله على كثيرٍ مِمَّن خَلَقَ.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1]

وبالإيمانِ والاستقامةِ - كما أُمِرْنَا - يحافظُ الإنسانُ على هذه التكريم، وينعَمُ بالحياة الطيبة التي لا تكون إلاَّ لمن آمنَ وعملَ صالحاً.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

باتِّباعِ هدي الله الذي أرسل به نَبِيَّه يستقيم أمْرُ الإنسان، وبالإعراض عن الذِّكر يَشقى، ويُصيبه ما يُصيبه من الذُّلِّ والهوان ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[3]

---

(١) الإسراء: ٧٠

(٢) النحل: ٩٧.

(٣) طه: ١٢٣- ١٢٧.

obeikandl.com

ومَن كانت هذه معيشتُه وغايتُه فلا يَلومَنَّ إلاَّ نفسَه. فقد عرَّض نفسَهُ للإهانة بالغفلة والإعراض. ولن تُكْرَمَ نفسٌ من أحدٍ إذا تعرَّضت لسخطِ الله وغضبه ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

إنَّ الحياة - بمعناها الصحيح - ليست في المظاهرِ والأعراض، من: مأكلٍ، ومشربٍ، ولذَّةٍ، ومتاعٍ.. فإن الإنسانَ يشترك في هذه مع غيره من الدواب والأنعام. فما جُعل متاعاً لها، جُعِل متاعاً للإنسان ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

والإيمانُ يرتفع الإنسان؛ إذ يجعله ينشُد ما هو أعلى وأبقى. والكُفر يهبط به عن مرتبة الدواب والأنعام؛ إذ به يفقد خصائصه وما مُيِّزَ به من تكريمٍ وتفضيل.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣)

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الحج: من الآية ١٨.
(٢) عبس: ٢٤- ٣٢.
(٣) محمد: من الآية ١٢.
(٤) الفرقان: ٤٤.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

فحياةُ الإنسان في الإيمان، وموتُهُ بالكُفر.

بالإيمان يحيا، ويجعل اللهُ له نوراً يمشي به في الناس.. وبالكُفر يموتُ ويَهلك، وإن بدا حيًّا في نَظرِ الناس.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٢)

والحياةُ التي يُحقّقها الإيمانُ هي التي تصونُ أَمْنَ الناس، وتُحقق الرحمةَ بينهم؛ لأن الإيمانَ خشيةٌ ومراقبةٌ، وطاعةٌ وإحسانٌ. وبه - وَحْدَهُ - يُوأدُ الشرُّ في النفسِ قبل أن يُولَدَ، وتحسن نيَّةُ الإنسان، ويصلح عمله، ويأمن الناسُ على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. إن الحياة التي يُحقّقها الإيمان هي الحياة الطيِّبة الباقية. وبه تتمُّ النجاة، وتُحفظ الأعمال، ويطيب الجزاء.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الأعراف: ١٧٩.
(٢) الأنعام: ١٢٢.
(٣) الكهف: ٣٠.
(٤) الكهف: ١٠٧.

﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

والإيمانُ نيَّةٌ، وقولٌ، وعَمَلٌ. فهو - إذن - شاملٌ لسعي الإنسان كُلِّه، ظاهِرِه وباطنه، سِرِّه وعَلَنه، قولِه وفعله. وهنا تسعد حياةُ الناس بالإيمان؛ إذ هو حَقٌّ وصِدْقٌ، وبِرٌّ وعدلٌ ورحمةٌ. هو نورٌ مُمتد في الحياة الدنيا وبعدها.

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣)

والإيمانُ هو الذي يُبقي على الإنسان ظافراً منتصراً أمام عوارضِ الحياة، من سرَّاء وضرَّاء، ويُسْرٍ وعُسْرٍ، وشِدَّةٍ ورخاءٍ؛ لأنَّ به تصحُّ الإجابةُ عن هذه العوارض.

وهل يظفر بالإجابة الصحيحة - من شُكرٍ وصبرٍ - إلاَّ مؤمنٌ بربِّه، يعبده ولا يُشركُ به شيئاً ؟ روى مسلم، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٤)

---

(١) الجن: من الآية ١٣.

(٢) التغابن: من الآية ١١.

(٣) الحديد: ١٢، ١٣.

(٤) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٣١٨.

الإيمانُ بالقَدَر

آثاره ونتائجه

أخي المسلم:

إنَّ الإيمان بالقَدَرِ - خيرِه وشَرِّه، حُلوِّه ومُرِّه - يُحقِّقُ الاعتدالَ في دُنيا الناس. فلا يكون الإنسانُ صريعَ يأسٍ مُقْبِضٍ، أو بَطَرٍ مُهْلِك.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

هكذا يؤدِّي الإيمانُ بما قدَّره الله إلى هذه النتيجة العظيمة.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

فتمضي الحياةُ مؤمنةً وثَّابَةً، مؤمِّلةً راشدةً، لا تنكسر بالمصابِ ولا تتوقَّف.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣.

(٢) التغابن: ١١.

إن الإيمانَ بقَدَرِ الله يطردُ اليأسَ من نفس المصاب، ويُحدِّد أملَه وهو يرقُبُ العاقبةَ، ويرجو رحمةَ ربِّه.

وإنك لترى نبيَّ الله يعقوبَ عليه السلام يُخاطِبُ بَنيه، ومُصابُه ما قد علمتَ من فَقْدِ يوسف وأخيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

وتأتي العاقبةُ لمؤمنٍ صادقٍ، صابرٍ، محتسبٍ، وفيٍّ بوعدِ الله ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٢)

وما رأيتُ شيئاً تهونُ به المصائبُ كالإيمان بقَدَرِ الله، وتفويضِ الأمر إليه.

إنه حمىً لحركة الحياة من التوقُّف أو التعثر، وحماية للإنسان من الذِّلة والهوان، وهو يسأل الخالقَ لا المخلوق، ويستعين بالله لا بالناس.

إنَّ الإيمان بالقَدَرِ حقيقةٌ عظيمةٌ يجب أن يعلمها الكبيرُ والصغير، ويرشد على فهمها كُلُّ جيل.

ولقد رأينا رسولَ الله ﷺ يُعلِّمُ الغلامَ كلماتٍ جامعةً لحقيقة الإيمان.

روى الترمذيُّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) يوسف: من الآية ٩٠.

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ » (١)

وفي رواية غير الترمذي: « احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ. وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ - كُلَّهُمْ جَمِيعًا - أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » (٢)

كَمْ كان لابن عباسٍ - وهو يَعْلَمُ من رسول الله ﷺ هذه الكلمات ؟

إنه غلامٌ صغيرٌ. لكنَّ رسول الله ﷺ يُحبُّ أن يُعلِّمَ الصغارَ الحقائقَ الفطرية الكبيرة؛ فإنها يسيرة على نفوسهم، وقد فُطِروا عليها.

لقد وُلِدَ ابنُ عباس قبل هجرة الرسول ﷺ بثلاثة أعوام، ففي أيِّ عامٍ كان خلفَ النبيِّ ﷺ، وخاطبه بهذه الكلمات ؟

إنه على أيِّ تقديرٍ غلامٌ صغيرٌ، فقد مات الرسول ﷺ وابنُ عباسٍ في أوائل العقد الثاني من حياته؛ وله من العُمر ثلاث عشر سنة، لكنه وَعَى ما خُوطِبَ به، وحفظ ما تعلَّمه، وحدَّث بما سمع.

---

(١) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٠، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) أحمد: ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، رقم ٢٦٦٦.

ومن المحتمل أن يكون دون العاشرة أو يزيد، وهو يُخاطَبُ بهذه الكلمات: « احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ... » إلى آخر ما قد سمعت؛ لأن العقيدةَ إذا صحَّت في نفس صاحبها استطاع أن يواجهَ صُروفَ الحياة، وأن يثبت أمام سرَّائها وضرَّائها، وأن يظفر بالنتائج الطيبة في جميع الأحوال « وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ »

وخرَّج الأمامُ أحمدُ من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ. وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ » (١)

أخي المسلم: الإيمانُ بالقَدَرِ يحفظ الإنسانَ في دُنياه راشداً في مواجهة صُروف الحياة، ومداولةِ الأيام بين الناس، ويعصمه من الجزع والسخط، واليأس والقنوط، ويجعل شعارَه في جميع أمره.

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢)

* * *

(١) أحمد: من مسند القبائل، باب من حديث أبي الدرداء ﷺ رقم ٢٦٢١٨.
(٢) التوبة: ٥١.

الصوم آثاره ونتائجه (١)

أخي المسلم:

إنَّ فرائضَ الإسلام تكليفٌ بما يُطهِّرُ النفسَ، ويوحِّدُ الصَّفَّ، ويؤلِّفُ القلوبَ.

وهي - لِمَن برَّ بها - خيرٌ في العاجلة، وفَوْزٌ في الآخرة.

وأُمَّتُنا الإسلاميةُ - وهي تعيشُ أيامَ صومها - عليها أن تُدركَ فَضْلَهُ في أُخوَّتها وروابطها، وعاجلِ أمرِها وآجِلِه.

إنها في حاجةٍ أن تجعلَ من رمضانَ سبيلاً لجَمْعِ الصَّفِّ على إعلاءِ كلمة الله، والوفاء لدينه.

رمضانُ شهرُ القرآن. والقرآنُ مُوَجِّهٌ للنفوسِ، هادٍ لها ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (١)

والمسلمون - وهم يجتمعون على تلاوته - عليهم أن يجتمعوا على تنفيذ أَمْرِه، واجتناب نَهْيِه؛ لينالوا شفاعته، وينعَمُوا بصُحبته.

روى الإمامُ مسلمٌ، عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسولَ الله يَقُولُ: « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ. وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ (٢)، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ (١)، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ

(١) الإسراء: من الآية ٩.

(٢) الْغَمامة والْغَيَاية: كُلّ شَيْء أظلّ الإنْسان فوْق رأْسه، مِنْ سحابة وغَبرة وغَيْرهما. قال الْعُلَماء: الْمراد أنّ ثَوابهما يأْتِي كغمامتَيْنِ.

(٢) تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا» (٣)

وروى أبو داودُ والترمذيُّ، عن عبد الله عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، عن النبـــيِّ ﷺ قال: « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا » (٤)

الأُمَّةُ الإسلاميةُ – وهي تقومُ بما فرض اللهُ عليها – تستطيعُ أن تُجابِهَ الأخطارَ، وأن تظفرَ بنَصرِ الله. ونَصرُ الله لا يُطلَبُ إلاّ بطاعته.

والأُمَّةُ الإسلاميةُ في حاجةٍ إلى ما يضبط سَيْرَها، ويعصِمُ سُلوكَها، ويوحِّدُ جَمْعَها، ويُصلِحُ ذاتَ بينها.

وهذا رمضانُ يحيا بينها بنُوره وهدايتِه، ويوشك أن يُفارِق. فهل تعي الأمةُ آثارَه، وتعرف نتائجه ؟

إنه بِرٌّ بدُنياهـــا، ورحمـــةٌ في أُخراها.

في الحديث المُتَّفَق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ. وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ (٥)، وَإِذَا كَانَ

(١) بفتح الرّاء وإسكانها، أيْ: ضياء ونور.
(٢) الفِرْقان والحِزْقان: معناهُما واحد، وهُما قَطيعانِ وَجماعتانِ، يُقَال في الواحِد: فِرْق وَحِزْق وحزيقة أيْ جماعة.
(٣) مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم ١٣٣٨.
(٤) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن، ما له من الأجر، وقـال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(٥) أي وقاية من نار جهنم.

Obeikandi.com

يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ (١)، وَلا يَصْخَبْ (٢)، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ (٣) فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » (٤)

وفي الحديث المُتَّفق عليه، عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ. يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » (٥)

هذا رمضانُ، وتلك بعضُ نتائجِه وآثارِه. وأُمَّتنا الإسلاميةُ في حاجةٍ إلى الصوم: تقي به نفسَها من الشرور والآثام، فمَن أصبحَ صائماً فلا يَجْهَلُ يومئذٍ، وإن امرؤٌ جَهِلَ عليه، فلا يَشْتُمُ ولا يَسبُّ، وليقُلْ: « إني صائم ».

« الصيامُ جُنَّةٌ » كجُنَّةِ أحدِكم من القتال. إنه وقايةٌ لنا من الآثامِ والشرورِ.

وهو – كذلك – وقايةٌ لنا من النار. روى مسلمٌ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلاَّ بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » (٦)

---

(١) أي لا يتكلم بقبيح.

(٢) أيْ لا يرفَعُ صوتَه، ولا يغْضبُ على أحدٍ.

(٣) الخلوف: تغير رائحة فم الصائم.

(٤) البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم، إذا شُتم ؟، رقم ١٧٧١.

(٥) البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم ١٧٦٣.

(٦) مسلم: كتاب الصيام، فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم ١٩٤٨.

أخي المسلم: ذاك هو الصيامُ في آثارِه ونتائجه. فهل يُحقّقُ المسلمون – فيما بينهم – ما يُوحِيه الصومُ وما يفرِضُه، فلا يكون صومُهم عن طعامٍ وشرابٍ وكفَى، بل يكون:

صومَ الحُرِّ عن الضَّيْمِ.

صومَ الأَبِيِّ عن الذِّلّةِ أو الصَّغار.

صومَ الكريمِ عن الفحشاءِ والمنكر والبغي.

صومَ اللسانِ عن السُّوءِ، والقلبِ عن الرِّيبة، والعقلِ عن السَّفَه.

صومَ الأُمَّةِ المتحابةِ المتراحِمَةِ، المتوادَّةِ المتعاطفة.

صومَ المحتسِبِ في سَعيه، الصبور في عَزْمِه.

صومَ الأمينِ المُمْسِكِ عن شهوة، أو قولِ زُور.

روى البخاريُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » (١)

إنَّ الصَّوْمَ كَفٌّ وفِعْلٌ. والحياة لا يستقيم أمرُها إلاَّ بالتقوى والصبر. والصومُ نصفُ الصبر، وغايته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (٢)، فهو – إذن – عَوْنٌ من الله. فَرْضٌ علينا ولَنَا يمدّنا بالعَزْمِ والإرادةِ والصبرِ؛ لنمضيَ في الحياة بِهِمَمٍ بارَّةٍ راشدةٍ تحذَرُ الآخرةَ، وترجو رحمةَ الله.

والأُمَّةُ الإسلامية تستطيع أن تُحقّقَ أبرَّ النتائج.

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم ١٧٧٠.
(٢) البقرة: من الآية ١٨٣.

أَلَمْ تكن غزوةُ (بدرٍ) في السابعِ عشَرَ من رمضان ؟

أَلَم يكن سعيُ المسلمين مع نبيِّهم ﷺ إلى مكةَ – مع بُعْدِ الشُّقَّةِ – في العشرين منه ؟

فهو – إذن – شَهْرُ جَدٍّ وجِهادٍ، وبسالةٍ وتضحيةٍ، شهرُ انتصارِ النفسِ على شهواتِها. ومَن انتصرَ على نفسه، كان قادراً – بعون الله – على النصر على عدوِّه.

وما لم ننتصرُ بفضلنا، لم نغلب بقوَّتنا.

إنك لن تنصر اللهَ في معركةٍ حتى تنصره في نفسك، بتغليب أمره على هواك.

فاللهم، إنَّا نسألُكَ العَوْنَ على أنفسِنا، كما نسألُكَ النصرَ على عدوِّك وعدوِّنا، يا ربَّ العالمين.

* * *

الصوم آثاره ونتائجه (٢)

أخي المسلم:

ما رأيتُ أكرمَ للإنسانِ من تَقْوَى ربِّه، وحرْصِه على مرضاته.

والصومُ عونٌ من الله على تقوى الله، ومن أجلِ تقوى الله فُرِض.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (١)

والتقوى جامعةٌ لخصالِ الخيرِ والبرِّ، مانعةٌ من ارتكاب الإثمِ والشر؛ فالصائم -بتقواه - مطمئنُّ القلب بذكْرِ ربِّه، عفيفُ اللسان، لا يُسْمَعُ منه لَغْوٌ ولا صَخَبٌ، وهو يذكر صومَه فلا يجيبُ مسيئاً بإساءته، بل يَعِفُّ عن ذلك؛ ابتغاءَ مرضاة ربِّه، فإن سَابَّهُ أحدٌ أو شاتَمَهُ، حَفِظَ صومَهُ. « والصَّوْمُ جُنَّةٌ » (٢) ووقايةٌ من الإثم وقولِ الزور والعملِ به.

قال ﷺ: « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » (٣)

فالصومُ انتصارٌ لفضائلِ النفسِ، وإيقاظٌ لدَوافعِ الخيرِ، وإعلاءٌ لقيمة الإنسان، وغُفْرَانٌ لذنبه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَنْ قَامَ رَمَضَانَ** إِيمَانًا

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

obeikandl.com

وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَنْ صَامَ رَمَضَانَ** إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٢)

فالصائمُ ليلُه ذِكْرٌ، ونهارُه سَعْيٌ وشُكْرٌ، وخاتمةُ أمره فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربِّه.

عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ. يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » (٣)

فَأَنْعِمْ بفريضةٍ تُزكِّي النفسَ، وتُطهِّرُ القلبَ، وتجمعُ الناسَ على ذِكرٍ وشُكر.

أَنْعِمْ بفريضةٍ تُحقِّقُ تقوى الله في دُنيا الناس.

وهل يُحقِّقُ الأمنَ والسلامَ بين الناس إلاَّ تَقِيٌّ يكُفُّ شرَّه، ويُقدِّمُ خيرَه ؟

وهل يتحقَّق الأمنُ إلاَّ بصَدوقٍ، يصُون لسانَه من الكذب، وعَيْنَه من الخيانة، وقلبَه من النفاق ؟

وهل تتراحَمُ الإنسانيةُ فيما بينها إلاَّ بِحُسْنِ الاستجابة لربِّها، والعمل على مرضاته ؟

إن إنسان الأَمْنِ في دُنيا الناس مَن يعرف ربَّه، فيخشاه في السِّرِّ والعَلَنِ، ويحفظه في جميع أمره.

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، رقم ٣٦.
(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان، رقم ٣٧.
(٣) سبق تخريجه.

إنسانُ الأمنِ مَنْ يصومُ عن المُحرَّمات، ويحبس نفسَه عن المنكرات، ويستبقُ - مؤمناً - إلى الخيرات.

ذاك مَن يأمنه الناسُ على أنفسِهم وأعراضِهم وأموالِهم.

والإنسانيةُ لا تستطيعُ أن تُحقِّقَ ذلك بإنفاق المليارات على إحرازِ الكَمِّ المدمِّر من السلاح، ولا تُحقِّقه بالتنافس لإحرازِ القوَّةِ لغير غاية، سوى الغَلَبة والتكاثر، وطَلب العُلُو في الأرض. وإنما يُحقَّق الأمن بالإيمان، ويُقامُ السِّلم بإسلام النفس وخضوعها لأمر خالقها. يُقامُ السِّلم بين الخَلق بـ (طاعة الخالق) لا بمعصيته، وبـ (معرفته) لا بنُكران فضله، وبـ (الفرار إليه) لا إلى غيره. يُقامُ السِّلمُ بـ (التعارف) لا بالتناكر، وبـ (التقوى) لا بالفجور، وبـ (البِرِّ) لا بالعدوان، وبـ (النصيحة) لا بالقطيعة، وبـ (شُكر النعمة) لا بكُفرها، وبـ (الإصلاح) لا بالإفساد. يقام بـ (تذكُّر الغد) لا بنسيانه، وبـ (الإيمان باليوم الآخر) لا بكُفرانه.

يُقامُ بتربية الإنسان على مأدبة الصيام. ومأدبة الصيام قرآنٌ يُتْلَى فيهدي للتي هي أقوم. مأدبةُ الصيام إمساكٌ عن قولِ الزور والعملِ به، يؤدِّي إلى كَفِّ الشر عن الناس، وقيامٌ بالليل يصهر الإنسانَ في بوتقة الخير، فلا يفكر إلاَّ فيما يبرّ بالناس، ويُحسن إليهم.

وبذا يوجَد إنسانُ الأمن بلا تكاليف. لا يحتاج إيجادُه إلى إنفاق المليارات وإحراز الكَمِّ المدمِّر من السلاح.

وهل تفعل الإنسانيةُ ذلك إلاَّ من خوف الإنسان من الإنسان ؟ وتربُّص الإنسان بالإنسان ؟ وهل يُعالَجُ ذلك إلاَّ بتنافسِ الأُمم على تربية النشء على احترامِ قيمةِ الإنسان، وحُرمة الإنسان ؟

إنّ الدِّينَ الّذي يُعلم نَبيُّه ﷺ أن « امرأةً دَخَلَت النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً » [1] جديرٌ أن يُتَّبع، لا ليُصان به الإنسان فحسب، بل لتُصان به جميعُ المخلوقات من الأذى والإساءة.

إنَّ الدِّينَ الّذي يُعلم نَبيُّه ﷺ أن اليسيرَ من فعل الخيرات تَعْظُمُ به الدرجات، إذا قُصِدَ به وجهُ الله، جديرٌ أن يُتَّبع؛ ليتنافس الناسُ على الخير لا على الشر، وعلى البرِّ لا على الإثم، فإنَّ مَن سَقى الكلبَ الظامِئَ شَكَرَ اللهُ له، فغفر له، ولو كانت مَن سَقَت - من قبل - بَغِيًّا من البَغَايا، لكنها عطفت فَبَرَّت، وسَقَت كلباً ظامئاً، فأنعمَ الله عليها بالمغفرة، كما أعانت غيرَها بالسُّقْيا، ولو كان مَن سقته كلباً.

إنَّ الدِّينَ الّذي يُعلم نَبيُّه أنَّ « فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » [2] جَديرٌ أن يُتَّبَعَ؛ لتُصان به الحُرُمات، وتُحفَظُ به الحقوق وتُقَامُ الواجبات.

أخي المسلم: هذا ما يؤدِّي إليه صَوْمُك. فكُن صائماً كما يجب، واحرص - دائماً - على طاعة ربِّك. والله مَعَكَ يَرْعَاكَ ويَحْفَظك.

* * *

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان، رقم ٤٧٥١.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٥٥٥٠.

وأذِّن في الناس بالحَجِّ

أخي المسلم:

لا يكادُ موسِمُ الحَجِّ تقتربُ أيَّامُه حتَّى يتدارَس الناسُ ذكرياتِ البيتِ الحرام وآياته. ويذكرون - فيما يذكرون - نداءَ إبراهيم عليه السلام حين أُمِرَ أن يُؤَذِّنَ في الناس بالحَجِّ، كما يذكرون دعاءَهُ ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ (١)

دعاءٌ قد استُجيبَ، ونداءٌ قد سُمِعَ، وسبحانه مِن استجابَ الدعاءَ، وأسمعَ النداء، وجعل بيتَه مباركاً، وهُدىً للعالمينَ، وجعل فيه من الآياتِ البيِّناتِ، والعِبَرِ والعِظات ما تَلينُ به القلوبُ، وتخشعُ النفوس !

فمَن ذا الذي لا يذكُرُ يومَ أن جاءتْ أُمُّ إسماعيل برَضيعها إلى هذا المكان، وليس فيه من أسبابِ الحياة ماءٌ ولا زرعٌ ؟

من ذا الذي لا يذكُرها وهي تقطعُ الأشواطَ بين الصَّفَا والمروة - صاعدةً وهابطةً - تبحثُ عن ماءٍ لوليدِها، وتنشُدُ له أسبابَ الحياة ؟

مَن الذي لا يذكُرها وقد أودعها إبراهيمُ في هذا المكان مع رضيعِها، ثم مضى وهي تسأله وتنادي عليه: « يا إبراهيمُ، آللهُ أمركَ بهذا ؟ » فيُجيبها: « نعم »، فتقول في ثقةٍ ورُشدٍ وإيمانٍ: « إذنْ لا يُضيّعنا »

وهل يُضَيَّعُ مَن حَفِظَ اللهُ ؟ وهل يخيبُ مَن استعانَ به، وأحسنَ التوكل عليه ؟

« إذن لا يُضيعنا » قَالَتْهَا أُمُّ إسماعيل في ثقةٍ ويقينٍ.

---

(١) إبراهيم: من الآية ٣٧.

وإذ بالمكان – على مَرِّ الزمان – تهوي إليه أفئدةٌ، وتُقبلُ عليه بحنينٍ وشوقٍ، وتذكُرُ من آياته البيِّنات ما تُهدى به في حياتها، وتستنيرُ به في روابطها، وتعتصمُ في أَمْنِها وسَلامِها.

تأتي إليه مُلبِّيةً نداءَ ربِّها، مُعلنةً صِدْقَ الولاءِ له، والإخلاصِ في عبادته.

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ, لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَـــرِيكَ لَكَ » (١)

أجناسٌ مختلفةٌ تأتي إليه، ولكنها – والحمد لله – مؤتلفة، وألسنةٌ مُتباينةٌ، ولكنها جميعاً بشُكْرِ الله وحَمْدِه ناطقة مُسبِّحة، يجمعها إيمانُها، ويوحِّدُ بينها دِينُها، ويحفظها من الجدال والفسوق بإخلاصها لربِّها، ورجائها في عَفْوه ومغفرته.

ويُذكِّرها حَجُّها بنداءِ نبيِّها ﷺ، وهو يخاطبها – جميعاً – إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها: « أيُّها الناس، إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ. كُلُّكُم لآدم، وآدم من ترابٍ، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم »

يُذَكرها بأُخوَّتها وروابطها، ويُحذِّرها من الفُرقة فيما بينها، ويُبصِّرها بما يجب أن تكون عليه، من أداء الحقوق والواجبات، ومن تقوى الله.

يتوجَّهُ الحاجُّ إلى قبلةٍ واحدة، ويؤمنُ بإله واحد، ويستجيبُ لندائه في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، ويعبده وحده لا شريك له، فتتحقَّقُ له (الحياةُ)، حياةُ الأمنِ والطمأنينة، والوقايةِ من الفتنة. ولا شيء يحفظُ روابطَ الأمة، ويصونُ حياتَها من الدَّمار والفساد كَحُسْنِ استجابتها لله وللرسول في كُلِّ ما تُدْعَى إليه وتُؤمَرُ به.

---

(١) البخاري: كتاب الحج، باب التلبية، رقم ١٤٤٩.

أخي المسلم: دُعِيتَ للحجِّ؛ لتعودَ منه كيومِ ولدتك أُمُّكَ، بريئاً من ذَنْبك. فاحرص على صِدقِ الإخلاص لله في جميعِ أمرك؛ فإنَّ هذا هو السبيلُ لأُلفَتِكَ مع أخيك، وتعاونك معه على البِرِّ والتقوى، بل هو السبيلُ لجَمْع الكلمة، وائتلاف القلوب، وصفاءِ النفوس.

وليكُن هذا موضعُ تنافُسك؛ فإن المجتمع الذي يتنافَسُ على الخيرات، ويستبق إليها، هو المجتمع الذي يُصَان وُدّه، ويُحفظ جَمْعُه، وتُصان روابطُه، والمجتمع الذي يتنافَسُ على التكاثر وزينةِ الحياة، تسُوء روابطُه، ويتدابر أهلُه.

ومن رحمة الله بخَلقه أنْ فَرَضَ لهم فرائضَ تجمعهم على الطُّهر، وتدعوهم إلى الذِّكر؛ حتى لا يُذكَر اليومَ ويُنْسَى الغد، ويُرغَبُ العاجلة وتُترَك الآخرة، ويُهمَل الإحاء، فيقع الجفاء.

فرائضُ تتكرَّر وتُعود؛ حمايةً للإنسان من الغفلة، وصيانةً له من التدابر والتناكر.

فرائضُ تجمعُ ولا تُفرِّق، وتُزكِّي وتُطهِّر، تذوبُ معها فوارقُ الجنس واللون، والغنى والفقر. وتعلو قيمة الإنسان، ويبقى النداءُ الكريم يُدوِّي في سمع الزمان؛ لتؤوبَ الأُمَّةُ - دائماً - إلى رُشدِها، وتُحافظُ عل أُلفَتِها وإخائها، وهي تُلبِّي نداءَ ربِّها في كُلِّ أمرٍ، وفي كُلِّ شأنٍ.

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ, لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَـــرِيكَ لَكَ ».

اللهم إنا نسألك رحمةً تهدي بها قلوبَنا، وتجمعُ بها شَملنا، وترُد بها الفتنَ عنَّا.

الحج ألفة للقلوب، وإخاء للنفوس

أخي المسلم:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ (١)

من منافع الحجِّ: اتِّساع دائرة الأُلفة والمودَّة بين المسلمين.

والأُلفةُ هدفٌ أساس. يدعو الإسلامُ إليها، ويُرغِّبُ فيها، ويُقيمها على دعائمَ راسخةٍ من الإيمان بالله، وصدقِ الإخلاص له، والاستقامةِ على دِينه.

إنّ أُلفَةَ القلوب لا تكونُ إلاَّ من الله، وما عندَ الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٢)

وهذه الأُلفةُ هي التي يتحقَّقُ بها إعلاءُ كلمة الله ونُصرة دِينه، فيُنصَرُ بها المظلومُ بإنصافه وأخْذِ الحقِّ له، ويُنْصَرُ بها الظالمُ بِرَدْعِه وأخْذِ الحقِّ منه.

ومجال الأُلْفَةِ في الحجِّ بريءٌ من المعَوِّقات، بعيدٌ عن المضعفات؛ لأنَّ النفوسَ قد أقبلت راغبةً في رحمةِ ربِّها ورضوانه، ملبِّيةً نداءَه في تَجَرُّدٍ، مستجيبةً في خشوعٍ، وهي

---

(١) الحج: ٢٧، ٢٨.

(٢) الأنفال: ٦٢، ٦٣.

تجهر بما آمنتْ به واستجابتْ له في نداءٍ موحِّدٍ.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١)

والإسلامُ - بما فرضَهُ ودعَا إليه - يُجنِّبُ المسلمينَ أسبابَ الفُرقةِ، ويُهيئ لهم جميعَ أسبابِ المودَّةِ والرحمة.

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ « لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا (٢)، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ » (٣)

والحجُّ - بجميع مناسكِه وشعائرِه - دعوةٌ إلى التوحيدِ الخالص، في أسلوبٍ عمليٍّ نابضٍ بالحياة، تتحرَّكُ فيه الأبدانُ، وتموي الأفئدةُ، ويتَّسق الزمانُ والمكانُ في تهيئة أسباب الخير للإنسان.

فهل يعي المسلمون مقاصدَ دينهم في روابطهم وجميعِ شئونهم ؟

إنَّ من دلائل الإخلاص في أداءِ الفرائض أن يُرَى أثرُها في حياةِ المسلمين، اعتقاداً، ورحمةً، وبرًّا.

ومن الإفلاس أن تُؤَدَّى دون أن يُزَال الأذى والخصامُ بينهم.

---

(١) الأنفال: من الآية ٤٦.

(٢) منْ النَّجْش وهو: أنْ يزيد في السِّلْعة وهو لا يُريد شراءها؛ ليقع غيْره فيها.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم ٤٦٥٠.

روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ [1] هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » [2]

فليتراحَم المسلمون فيما بينهم، وليتعاونوا كما أمرهم اللهُ على البرِّ والتقوى، وليأتوا بصلاتهم وصيامهم وزكاتهم - وجميع فرائضهم - صادقين مُخلصين، وليحذروا ضياعَها من ميزانِ أعمالهم بالسَّبِّ والشَّتْمِ والقَتْلِ وإفسادِ ذاتِ البَيْنِ؛ فإن الحسابَ لا يَدَعُ من أعمالهم القليلَ أو الكثير.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [3]

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [4]

والله من وراء القَصْدِ، وهو يَهْدِي السَّبيل.

* * *

(١) القذف: الاتهام بالزنا دون شهود.

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٧٨.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) الزلزلة: ٧، ٨.

الحج تعبير عن وحدة المسلمين

أخي المسلم:

الأُمَّةُ الإسلاميةُ أُمَّةٌ واحِدَةٌ، عميقةُ الأصول، باسقةُ الفروع.

إنها أُمَّةُ الرُّسُلِ جميعاً، فكُلُّهم رعاةٌ للإسلام، عاملون به.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (١)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

إنها أُمَّةُ الأنبياء ومَن آمنوا بهم جميعاً في كُلِّ زمانٍ ومكان.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٤)

إنَّ الكونَ كُلَّه - بفطرته - مُسْلِمٌ، مُسَبِّحٌ بحمدِ ربِّه. ومَن خالَفَ هذه الحقيقة، أو ابتغى غرضاً ضد [illegible] الفطرةَ التي فطر الله الناسَ عليها. ولن يُقْبَلَ منه ما ابتغاه أو مَالَ إليه.

---

(١) الشورى: من الآية ١٣.

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) الأنبياء: ٩٢.

(٤) المؤمنون: ٥٢.

obeikandl.com

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (١)

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (٤)

وفريضةُ الحجِّ تعبيرٌ عن وحدةِ المسلمين في: ماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم.

إنه مُذكِّرٌ بما كان عليه إبراهيمُ عليه السلام، وما دَعَا إليه وما آمَنَ به.

إنه تلبيةٌ لنداءِ الله الذي أمرَ به إبراهيمَ ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟

(١) آل عمران: من الآية ١٩.
(٢) آل عمران: ٨٥.
(٣) الروم: من الآية٣٠.
(٤) آل عمران: ٨٣، ٨٤.

ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

إنَّ فريضةَ الحَجِّ تعبيرٌ عن صِدْقِ الولاءِ لله، وطاعتِه والاستجابةِ لأوامره « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ, لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ » تلبيةٌ من الوافدين لِحَرَمِ الله الآمنِ والبيتِ العَتيق، يجتمعُ تحت لوائِها كُلُّ مَن آمنَ بالله وملائكته وكُتبه ورُسله واليومِ الآخر، في غابرِ الزمان وحاضِره ومستقبلِه، ولا تحُول دونَ روابطهم وأخوّتهم حدودُ زمانٍ أو مكان.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

وكَم في البيت الأوَّلِ من آياتٍ وهُدَىً للعالمين، يشهدها جيلٌ بعد جيلٍ، إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها.

---

(١) الحج: ٢٧ – ٣٢.
(٢) الحشر: ١٠.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

فهل يدرك المسلمون - في حاضرهم - ما تُوحي به فريضةُ الحَجِّ من وحدة وترابُط بين المسلمين حيث كانوا ؟ وأن يكونَ لهذه الفريضة أثرُها في تطهير النفوس من لوثة الشرك وظلام الإفْك، واستقامتها على دين الله كما أُمِرَتْ، في اعتدالٍ لا تفريطَ فيه ولا غُلوَّ ؟

هل تُحقّقُ هذه الفريضةُ - في حياتهم كُلِّها - حُسْنَ الاتباع لرسول الله ﷺ، وهو الذي يقول: « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » (٢)، « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » ؟ (٣)

اتِّبَاعٌ لا ابتداعَ فيه. حتَّى تُقْبَلَ منهم أعمالُهم، ويَعْظُم عند الله أجرُهم.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤)

قال رسول الله ﷺ: « إنِّي قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا (٥) بعدهما: كتابَ الله وسُنَّتي » (٦)

---

(١) آل عمران: ٩٦، ٩٧.

(٢) النسائي: كتاب مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم، رقم ٣٠١٢.

(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، رقم ٥٩٥.

(٤) آل عمران: ٣١، ٣٢.

(٥) الضلال: الضياع والميل عن الصواب.

(٦) الحاكم في المستدرك (١/١٧٣) رقم ٣١٩، الدارقطني في سُننه (٤/٢٤٥) رقم ١٤٩.

فهل تتلاشى من حياةِ المسلمين - في حاضرهم - الشعاراتُ التي تتنافَى مع دينِهم ؟ وأن تكون وَحْدَتهم قائمةً على صِدق الإخلاص لله، وحُسْنِ التوجُّه إليه ؟

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١)

اللهم أنا نسألُكَ رحمةً تهدي بها قلوبَنا، وتجمع بها شَمْلَنا، وتلُمّ بها شعثنا، وتردّ بها الفِتنَ عنَّا.

* * *

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

كيفية الإحرام ودلالته

أخي المسلم:

من رحمةِ الله بعبادِه أنْ جَعَلَ لهم حَرَماً آمناً، وفرض على المستطيعِ أن يَحُجَّ البيتَ.

والحَجُّ - كغيره من العبادات التي فرضها الله - يتَّبع فيه المسلمُ نبيَّه ﷺ، ولا يبتدع « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »، « خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ » (١)

فإذا عَزَمْتَ - أخي المسلم - على الحجِّ فعليكَ أن تتَّقي ربَّك، وأن تُوصي أهلَك بذلك، وأن تُبيِّنَ لهم ما لَكَ وما عليك، وأن تَخْرُجَ بنفقةٍ طيِّبةٍ من مالٍ حلالٍ؛ « فإن الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيباً »، فإذا مَا لَبَّيْتَ وقُلتَ: « لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ » نادَاكَ مُنادٍ من السماء: « لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، زادُك حلالٌ، وراحلتُك حلالٌ، وحَجُّك مبرورٌ غيرُ مأزورٌ »

واحذر - أخي المسلم - أن تخرُجَ بنفقةٍ خبيثةٍ من مالٍ حرام؛ فإنَّ مَن فعل ذلك ولبَّى، فقال: « لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ » نادَاكَ مُنادٍ من السماء: « لا لَبَّيْكَ، ولا سَعْدَيْكَ، زادُك حرامٌ، وراحلتُك حرامٌ، وحَجُّك مأزورٌ غيرُ مبرور » (٢)

وعليك أن تقصُدَ بحجِّك وجْهَ ربِّك، وأن تحذر أن تقصد به رياءً أو سُمْعَةً أو مفاخرةً بين الناس.

واسأل عمَّا لا تعلم؛ حتى تؤدِّي حجَّك كما ينبغي أن يكون.

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني: ٥/٢٥١، رقم ٥٢٢٨.

واعلم أن الرسولَ ﷺ قد وقَّت مواقيتَ، فلا تتجاوز الميقاتَ بغير إحرامٍ؛ فإن كُنْتَ من أهل المدينة فميقاتُك "ذو الحليفة" أو ما يُسمَّى اليوم "أبيار علي"، وإن كنتَ من أهل الشام فميقاتُك "الجُحْفَة"، وإن كنتَ من أهل نَجْد فميقاتُك "قَرْن المنازل" وهو المُسمَّى اليوم "السَّيْل"، وإنْ كنتَ من أهل اليمن فميقاتُك "يَلَمْلَمْ"، وإن كنتَ من أهل العراق فميقاتُك "ذات عِرق".

ويحرُم عليك أن تتجاوزَ هذه المواقيت دون إحرامٍ، سواء كان مرورُك عليها عن طريق البَرِّ أو الجَوِّ ما دُمتَ تقصدُ مكةَ حاجًّا أو مُعتمِراً.

هكذا علَّمنا رسولُنا ﷺ، ووقَّتَ هذه المواقيت.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: « إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَّتَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلأَهْلِ الشَّأْمِ الْجُحْفَةَ، وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ، وَلأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ. هُنَّ لَهُنَّ، وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ، مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ. وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَمِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ، حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ » (١)

فإذا وصلتَ - أخي الحاج - إلى الميقات استُحِبَّ لكَ أن تغتسلَ وأن تتطيَّبَ؛ لما ثَبتَ في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: « كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لإِحْرَامِهِ حِينَ يُحْرِمُ، وَلِحِلِّهِ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ » (٢)

والمرأةُ إذا وصلت إلى الميقاتِ - وهي حائضٌ أو نُفَساء - تغتسل، وتُحرم مع الناس، وتفعل ما يفعله الحاجُّ، غير الطوافِ بالبيت.

---

(١) البخاري: كتاب الحج، باب مَهل أهل مكة للحج والعمرة، رقم ١٤٢٧.

(٢) البخاري: كتاب الحج، باب الطِّيب عند الإحرام، رقم ١٤٣٩.

ويلبس الرجلُ إزاراً ورداءً، ويُستحَبُّ أن يكونا أبيضيْنِ نظيفين، وأمَّا المرأة فيجوزُ لها أن تُحرِمَ فيما شاءت، دونَ تشبُّهٍ بالرجال.

وبعد الفراغ من الغُسل والتنظيف ولُبس ثياب الإحرام، عليك أن تنوي بقلبك الدخولَ في النُّسُك الذي تُريده من حجٍّ أو عمرة، ويُشرَعُ لك التلفظ بما نَوَيْتَ، كقولك: « اللهم، لبَّيك عُمرة » أو « اللهم، لبيَّك حجًّا »

ولا يجوز لك بعد نيَّة الإحرام أن تأخُذَ شيئاً من شَعرك أو أظافرك، أو تطيَّب. ويجوز لك أن تغسل ثيابَك التي أحرمتَ فيها، أو إبدالها بغيرها.

ويجب عليك أن تترك: الرَّفَث، والفسوقَ، والجدالَ في الحجِّ؛ استجابة لأمر ربِّك ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ (١)

أخي المسلم: عليك - وقد أحرَمْتَ - أن تُدَبِّرَ أمرَك، وأن تتفكَّرَ فيما أنتَ مُقبلٌ عليه، وقد تجرَّدت من زينة الحياة، وارتديتَ ما يُذكِّرك بلقاء ربِّك.

إنَّ لهذا الإحرام دَلالته في توجيه النصح لك وأنت تُلبي نداءَ ربِّك « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ, لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ »

فليكُن هذا شعارُك في حياتك كُلِّها، وأنت تُدْعَى لطاعة الله، وتُطلب لمرضاته، ولتعلم أن الأجلَ آتٍ لا ريبَ فيه، فخُذ من يومِك لغَدِك، ومن دُنياك لآخرتك، واحفظ الله يحفظك، واخلص القصدَ له. واحذر مبطلات عملك، ومُحبطاتِ سَعيك، وترفَّق بإخوانك، ولا تؤذي أحداً من حولك، واتق الله في جميع أمرك.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

---

(١) البقرة: من الآية ١٩٧.

(٢) يوسف: من الآية ٩٠.

يوم الضراعة والإنابة

أخي المسلم:

هذا يومُ عرفة. يومٌ له فضلُه ومكانتُه.

عن عَائِشَةَ – رضي الله عنها – أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلاءِ ؟ » (١)

يومٌ يطيبُ فيه الدعاءُ والاستغفارُ والتضرعُ، وتُرجى فيه الإجابة.

يومٌ يَجُود الله فيه على عبادِه، ويُباهي بهم ملائكتَه.

يوم يُذَلُّ فيه الشيطانُ، ويكثُر فيه العتقاء من النار.

« وما رُئي الشيطان في يومٍ هو أدْحَرُ (٢)، وَلا أَحْقَرُ، وَلا أَغْيَظُ، مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ؛ وَمَا ذَاكَ إلاَّ لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إلا ما رُئيَ يوم بَدْرٍ » (٣)

ألاَ فلنرفع أَكُفَّ الضراعةِ إلى الله، أن يجمعَ شَمْلَ المسلمين لإعلاء كلمته ونُصرةِ دِينه.

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. له الملكُ وله الحمدُ، بيده الخيرُ وهو على كُلِّ شيء قدير.

---

(١) مسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم ٢٤٠٢.

(٢) الدَّحْرُ: الدَّفع بعنف على سبيل الإهانة والإذلال.

(٣) مالك: كتاب الحج، باب جامع الحج، رقم ٩٤٤، ورواه المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: رواه مالك والبيهقي من طريقه وغيرهما، وهو مرسل.

اللهم إنا نسألك رحمةً تهدي بها قلوبَنا، وتجمع بها شملنا، وتلمّ بها شَعثنا، وترد بها الفتنَ عنَّا.

اللهم إنا نسألك موجباتِ رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمةَ من كُلِّ بِرٍّ، والسلامةَ من كُلِّ إثمٍ، والفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النار.

اللهم لا تَدَع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا هَمًّا إلا فرَّجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجةً لك فيها رضا إلاَّ قضيتها يا أرحم الراحمين.

اللهم إنا ظلمنا أنفسَنا ظُلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لنا مغفرةً من عندك، وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم.

اللهم اغفر لنا ذنوبَنا جميعاً، واهدِنا لأحسنِ الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنِها إلا أنت.

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ, لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَـــرِيكَ لَكَ.

اللهم زَيِّنَا بزينةِ الإيمانَ، واجعلنا هُداةً مُهتدين، غير ضالين ولا مُضلين، سِلماً لأوليائك، حرباً على أعدائك، نُحبُّ بحُبِّكَ مَن أحبَّكَ، ونُعادي بعداوتِكَ مَن عادَاك.

اللهم انقلنا من ذُلِّ المعصية إلى عِزِّ الطاعة، واغنِنَا بحلالِك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمَّن سواك. ونوِّر قلوبَنا وقُبورنا، وأَعِذْنا من الشر كُلِّه، واجمع لنا الخيرَ كُلَّه.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

أيها المسلمون في كُلِّ مكان: هذا يومُ عرفة. يومُ الضراعةِ والإنابة. فراجعوا أنفسكم، وأنيبُوا إلى ربِّكم، وأخلصوا القصدَ له. وفِرُّوا إليه، واستعينوا به، وتوكَّلوا عليه.

تذكروا أنه أعزَّكم بدينه، فلا تبتغوا العِزَّ في غيره؛ فإنه من ابتغى العِزَّ في غيره أذلَّه الله. تذكروا أُخوَّتكم، واحرصوا عليها ﴿ **وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ (١)

اعتصموا بكتابِ ربِّكم، وتمسكوا بسُنَّةِ نبيِّكم، واتقوا الله، وأصلحوا ذاتَ بينكم.

أيها المسلمون في كُلِّ مكان: أنتم أُمَّةُ الرسالة، أمةُ الرُّسُلِ جميعاً. فاحذروا أن يشغلكم شيءٌ عن القيامِ برسالتكم ﴿ **وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ (٢) ولا تقولوا: إن عدوَّنا شرٌ منَّا، فلن يُسلَّطَ علينا؛ فَرُبَّ قومٍ سُلِّطَ عليهم مَن هو شَرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل - لما عملوا بمعاصي الله - كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً.

واعلموا أنكم لن تستطيعوا أن تنصروا الله في معركةٍ، حتى تنصروه في أنفسكم، بتغليب أمره على هواكم. وما لم ننتصر بفضلنا، لم نغلب بقوتنا.

أيها المسلمون في كُلِّ مكان: وحَّدتكم إخوَّتُكم، فحافظوا عليها، واتَّقوا الله فيها، ولا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ.

---

(١) الأنفال: من الآية ٤٦.

(٢) الحشر: من الآية ١٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

اللهُ أكبر، اللهُ أكبر، اللهُ أكبر. لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. له الملك، وله الحمدُ، بيده الخيرُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير.

أيها المسلمون في كُلِّ مكان: إن الدنيا كُلَّها تنشُدكم؛ لتؤدُّوا رسالتكم في إعلاء كلمة الله؛ ليُنصرَ بها المظلومُ في كُلِّ مكانٍ بإنصافه وأخْذِ الحقِّ له، ويُنصَر بها الظالمُ بردْعِه، وأخْذِ الحقِّ منه.

وهذا ما دعاكم إليه نبيُّكم ﷺ، وكلَّفكم به حين قال: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا. كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنْ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (٢)

اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبر.

يَا لَهُ من دينٍ تُعَزُّ به النفوس، وترتفع الرؤوس، ويُدْعَى به إلى سلامٍ عادلٍ، وأمن صادق!

أيها المسلمون: هذا يومٌ من أيامِ الله، فاجعلوه يوم تَحوُّلٍ في تاريخكم المعاصر، من

---

(١) آل عمران: ١٠٢، ١٠٣.

(٢) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه، رقم ٦٤٣٨.

فُرقَةٍ إلى وحدة، ومن تدابرٍ إلى تعاطفٍ وتراحم؛ فإن الله ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١)

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)

واسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم، كما تسألونه النصرَ على عدوِّكم.

نسألُ الله - تعالى - ذلك لنَا ولكم.

* * *

(١) الرعد: من الآية ١١.
(٢) النساء: ٥٩.

obeikandl.com

فرحةُ العِيد

أخي المسلم:

إن للعيدِ عندنا - نحن المسلمين - فرحتُه؛ لأنه مقترنٌ بتوفيقِ الله ورحمته في أداءِ عبادةٍ لها قَدْرُها وشأنُها عند الله، ولها آثارُها ونتائجُها في حياة الإنسان.

فقد شرع الله لهذه الأُمَّةِ عِيدَيْنِ كُلَّ عامٍ بعد أداءِ رُكنين عظيمين من أركان الإسلام، هما: صومُ رمضان، وحَجُّ بيتِ الله الحرام.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كَانَ لأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَانِ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ: كَانَ لَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا، وَقَدْ أَبْدَلَكُمُ اللَّهُ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْفِطْرِ، وَيَوْمَ الأَضْحَى » (١)

عِيدَانِ كُلَّ عامٍ يعقُبان أداءَ الصوم وأداءَ الحج، وفيهما ينشرُ الله الرحمات، ويعفو عن السيئات، ويتجاوَزُ عن الخطايا ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢)

« لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » (٣)

إنَّ فرحةَ الصائم بفطره قد جعلها الله عيداً يتوجَّهُ فيه إلى الله ذكراً وشُكراً، وتكبيراً وتحميداً، في المساجد، والمنازل، والطُرق، والأسواق « الله أكبر، الله أكبر، الله

(١) النسائي: كتاب صلاة العيدين، رقم ١٥٣٨.
(٢) يونس:٥٨.
(٣) مسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١٩٤٤.

أكبر، لا إله إلا الله. والله أكبر الله أكبر، ولله الحمد »

ويتوجَّهُ فيه إلى الخَلق مودَّةً ورحمةً بما أوجبَ من صدقاتٍ وزكواتٍ على الأغنياء والفقراء على السَّواء. يواسِي بها الغنيُّ الفقيرَ، ويُواسي بها الفقيرُ مَن هو أفقرُ منه. فكما كانت ضريبةُ الصبر والزهد على الجميع فَرْضاً في رمضان، أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميعَ في العيد.

هكذا تساوينا جميعاً: أَمْسُ تساوَيْنَا في الجوع والعطش، واليومَ نتساوى في الشبع والرِّي.

بهذا يكون يومُ العيد يوم بهجةٍ وسرورٍ لجميع المسلمين، وبهذا يطالبنا الإسلام أن تكون، فلا نسمع اليومَ شاكياً، ولا نرى باكياً، ولا نشاهِدُ جائعاً ولا عارياً، ولا تطلع شمسُ هذا اليوم وفي بيتٍ من البيوتِ جائعٌ أو عُريانٌ، وفي الطريق سائلٌ أو محرومٌ.

يجبُ أن تملأ البهجةُ كُلَّ النفوس، وتُرتَسَم الابتسامةُ على كُلِّ الوجوه.

يجب أن تشعُرَ الأمةُ كُلُّها - في هذا اليوم - بعِزَّةِ الاستغناء، وأن يُمْحَى من بينها ذُلُّ السؤال.

هذه هي تعاليمُ الإسلام في نصِّها ورُوحِها. ومن أجل ذلك فُرِضَت زكاةُ الفطر لتكونَ طُهرةً للصائم مِمَّا عسى أن يكون وقعَ فيه من اللغو والرفث، ولتكونَ عَوْناً للفقراءِ والمعوزين.

روى أبو داود عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: « فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ؛ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ. مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ

زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنْ الصَّدَقَاتِ » (١)

وجمهورُ الفقهاء على أنه يجوز تعجيل صَدَقة الفطر قبل العيد بيومٍ أو يومين، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاةِ » (٢)

وفي أدائهـــا في الوقت الذي حُـــدِّدَ لها تحقيقٌ لأمر رسول الله ﷺ في قولـــه: « اغنوهم عن طواف هذا اليوم » (٣)

ليكون العيد فرحةً عامةً شاملةً، يَنْعَمُ الناسُ جميعاً بالحمد والشكر، وصادق المودَّة، والتعاون والبرِّ.

لقد كانت فريضةُ التقشف والحرمان ضريبةً محتومةً في زمن الصوم، فإذا جاء يومُ العيد فلا صومَ اليوم، ولا حرمانَ من الطيبات.

فليأخذ كُلٌّ منَّا اليومَ أحسنَ زينةٍ، وليُظْهِر أثرَ نعمةِ الله عليه؛ فهذا يوم إظهار النِّعَم، وتقديم الطيبات من الرِّزق.

ولا تَزَمُّت، ولا حرمان اليومَ من اللعب واللهو البريء المباح. روى مسلمٌ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: « دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثٍ، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، فَانْتَهَرَنِي، وَقَالَ: مِزْمَارُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعْهُمَا. فَلَمَّا غَفَلَ

---

(١) أبو داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم ١٣٧١.

(٢) مسلم: كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة، رقم١٦٤٥.

(٣) سنن البيهقي الكبرى: ١٧٥/٤، رقم ٧٥٢٨.

غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا، وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ [١] وَالْحِرَابِ فَإِمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَإِمَّا قَالَ: تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ خَدِّي عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ: دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ. حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ: حَسْبُكِ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَاذْهَبِي » [٢]

وقول الرسول ﷺ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عندما انتهرَ عائشةَ - وقال: « أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ! » وقوله ﷺ: « يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا » يعتذرُ به عنها، ويُبيِّنُ أن إظهارَ السرور في العيدين شعارُ الدِّين، وليس هو كسائر الأيام.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: « جَاءَ حَبَشٌ يَزْفِنُونَ [٣] فِي يَوْمِ عِيدٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى مَنْكِبِهِ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ، حَتَّى كُنْتُ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ عَنْ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ » [٤]

قال النووي: « يَزْفِنُونَ مَعْنَاهُ يَرْقُصُونَ، وَحَمَلَهُ الْعُلَمَاء عَلَى التَّوَثُّب بِسِلَاحِهِمْ، وَلَعِبهمْ بِحِرَابِهِمْ عَلَى قَرِيب مِنْ هَيْئَة الرَّاقِص أ.هـ » [٥]

وهذا اللونُ من اللعب المشار إليه في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ليس لهواً سائغاً

---

(١) جلود تُلبس بمنزلة الدُّروع.

(٢) مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في يوم العيد، رقم ١٤٨٢.

(٣) مَعْنَاهُ يرقُصُون.

(٤) مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في يوم العيد، رقم ١٤٨٣.

(٥) شرح النووي على مسلم: ١٨٦/٦.

مُرَخَّصاً فيه فحسب، بل إنه - متى صلحت النيَّةُ - كان عملاً يندبُ إليه الإسلامُ، ويحضُّ عليه كما يحضُّ على الرماية والسباحة والعَدْوِ وركوبِ الخيل، وسائرِ ضروبِ الرياضة البدنية النافعة؛ فإنها تُكسِبُ صاحبَها قوَّةً في العزيمة، ومناعةً في البدن، وتجعل منه جُندياً مُعدًّا لحماية الدِّين والوطن.

إن العيدَ موسمٌ جامعٌ للفرح والسرور والترويح عن النفس، ومظهرٌ من مظاهرِ عِزَّةِ المسلمين. ولا يقتصرُ فَرَحُ المؤمن وسرورُه على أيام معدودات، بل تظل حياته طيبةً بحُسن استجابته لله وللرسول.

إن العيدَ السعيدَ لِمَن صلَّى وصامَ، وقام بالحقوق الواجبة عليه - في كُلِّ مجال - أتَمَّ قيام. إن الفرحةَ بعيد الفطر فرحةُ صائمٍ منتصرٍ بصومِه. وفرحته هذه هي إحدى الفرحتين، بل أدنى الفرحتين.

أمَّا الفرحة الثانية ففرحته عند لقاءِ ربِّه. وهي فرحة تَبْقَى وتدوم، وهو يرى الله - بفضله - قد باعَدَ بينه وبين النار، وجعله من الفائزين ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (١)

روى مسلمٌ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلاَّ بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » (٢)

إن الخصوصيةَ للصوم في ذاتِه وفي غايته تجعلُ له خصوصيةً في مآله وعاقبته.

---

(١) آل عمران: من الآية ١٨٥.

(٢) مسلم: كتاب الصيام، فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم ١٩٤٨.

في الحديث المُتَّفَق عليه، عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ. يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » (١)

وروى الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ » (٢) أي: تُقبَل شفاعتُهما.

« فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ » يا لَهَا من تسمية دالَّة ومعبِّرة عن عاقبة الصوم وجزائه. فإن الصائمين الذين تركوا طعامَهم وشرابَهم؛ ابتغاءَ وجه ربِّهم، لم يذهب الظمأُ عند إفطارهم بعد صيامهم في دُنياهم فحسب، بل ذهب الظمأُ، وابْتَلَّت العروقُ، وثبت الأجرُ بمشيئة الله. وجاء الرَّيُّ الذي لا يكون بعده ظمأٌ أبداً، ودخل الصائمون إلى الجنة من الباب الذي خُصِّص لهم، ولا يدخلُ منه سواهُم.

وإذا كان للصومِ قَدْرُه وأثرُه، فإننا نرى الرسولَ ﷺ يُرغِّبُ فيه في أيامٍ أُخَر غير ما فرض الله من صيامِ رمضان، ومن ذلك صيام ستة أيام من شوال، حيث قال الرسول ﷺ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ » (٣)

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم ١٧٦٣.

(٢) أحمد: مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، رقم ٦٣٣٧.

(٣) مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ستة أيام من شوال، رقم ١٩٨٤.

أخي المسلم: واجباتٌ مع فرحةِ العيد يجب أن تؤدَّى وتدوم.

ومن ذلك: البرُّ بالأرحام، ووصلِها على الدَّوام؛ رغبةً في دوامِ الوَصْلِ بالرحمن؛ فإنَّ مَن وصلها وُصِلَ، ومَن قطعها قُطِع.

ومن ذلك: دوامُ الصِّلةِ بالقرآن، والعمل به؛ فإن الله تعالى قد أنزله بفضله ورحمته، وحفظه؛ ليُتدبَّر وليُعمَلَ به، وهو يهدي في كُلِّ شأنٍ للتي هي أقوم.

ومن ذلك: الترابط والتراحم بين المسلمين، والعمل على توحيد غايتهم ومقاصدهم في إعلاء كلمة الله. وما تدرَّبَ عليه الصائم في رمضان - من الإخلاص، والعمل الصالح، والإمساك عن قول الزُّور، والعمل به - يجبُ أن يبقَى ويدوم؛ فإن مَن أخلصَ من أجلِ شهر رمضان، عليه أن يتذكَّرَ كلمةَ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند وفاة الرسول ﷺ: « مَن كانَ يعبُدُ محمداً فإنَّ محمداً قَدْ مَاتَ، ومَنْ كان يعبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت » فإنَّ كُلَّ مَن وُلِدَ سيموت، والذي لم يَلِد ولم يُولَد هو الحيُّ الذي لا يموت، وهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ، ولا يستحقُّ ذلك شيءٌ سواه.

والعملُ بذلك جديرٌ أن تتغيَّر به القلوبُ من حالٍ إلى حال، وأن تستقيمَ النفوس، وتصلح الأحوال، وأن يجتمع به شملُ الأُمَّةِ ويعظُمُ شأنها، وهي تتوكل على الله، لا على أحدٍ سواه؛ فإن مَن توكَّلَ على الله كَفَاه، ومَن اتَّقَى اللهَ ظَفَرَ بِمَعِيَّتِه، وفَازَ برضاه. وما فُرِضَ شهرُ رمضان إلاَّ لتحقيق التقوى.

ومن درب على ذلك في شهر رمضان جديرٌ به أن يُحسِنَ في حياته كُلِّها ولا يسيء، ويُصلح ولا يُفسد، ويعمل بذكر الله ولا يجهل.

جديرٌ بِمَن انتصرَ على هواه، وصام رمضان إيماناً واحتساباً، أن ينصُرَ الله في

كُلِّ أمرٍ. ولن ينصره إلاَّ بتغليب أمره على هواه.

إن أتعسَ ما تُصابُ به أُمَّةٌ أن تنصُرَ عدوَّها بتنازعها وفُرقتها، وأن تُحقِّقَ كَيدَهُ فيها بفشلها وذَهَابِ ريحها. وإن أُمَّتَنَا إنْ هي أفلحت في التمسك بما يُمليه صومُها، وما يهدى إليه كتابُ ربِّها، فلن تُضَرَّ بكيد عدوٍّ، ولن تؤخَذَ بمكره وتدبيره.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

إنَّ الفَرَحَ بالعيد فرحٌ بانتصار الفضائل، وإظهار المكارم.

وهو يُعلِّمُنا أن يكونَ فرحُنا - دائماً - منوطاً بما يحبُّ الله ويرضاه، لا بما تؤثره النفوسُ وتهواه. منوطاً بالعواقب لا بالرغائب؛ فإن الرغائب تذهبُ والعواقبُ تبقَى، والعاجلةُ ذاهبةٌ، والآخرة خيرٌ وأبقَى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢) أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودِينِ الحقِّ فليفرحوا؛ فإنه أَوْلَى ما يفرحون به، هو خيرٌ مِمَّا يجمعون من حُطَام الدنيا وما فيها من الزَّهرةِ الفانية.

لَمَّا قَدِمَ خَرَاجُ العراق إلى عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خرج عمرُ ومولىً له، فجعل عمرُ يعُدّ الإبلَ فإذا هي أكثرُ من ذلك، فجعل عمرُ يقولُ: « الحمد لله تعالى »،

(١) آل عمران: ١٢٠.
(٢) يونس: ٥٧، ٥٨.

ويقول مولاهُ: « هذا - والله - من فضله ورحمته » فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « كذبت. ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾، وهذا مِمَّا يجمعون.

فحُطامُ الدنيا وما فيها هو مِمَّا يجمعون، أمَّا فَضْلُ الله ورحمته فهو ما جاء من الهُدى ودِينِ الحقِّ، فَبِهِ فليفرحوا ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

إن اتِّباعَنا لهدى الله هو السبيلُ لِجَمْعِ كلمتِنا، وعِزَّةِ أُمَّتِنا، هو السبيلُ لفرحتنا بنصر الله وإعلاء كلمته. عندئذٍ يأتي العيدُ والقلوب مؤتلفة، والجهود متناسقة، والمسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسد بالحُمَّى والسَّهر.

نرجو من الله تعالى أن يعودَ العيدُ على الأُمَّةِ الإسلامية وقد تبوَّأت مكانَتَها، وبَرِئَتْ من جراحاتِها؛ حتى يكون لها في العالم صوتٌ مسموعٌ، ورأيٌ مَتْبُوعٌ، والقلوبُ عامرة بصدق الإيمان، والنفوس مطمئنة بطاعةِ الرحمن.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) العنكبوت: ٦٩.

يسِّروا ولا تُعسِّروا

أخي المسلم:

التيسيرُ سِمَةٌ من سِمَاتِ الدِّينِ الإسلاميِّ. تبدو فيما شرع الله لعباده، وما فَرَضَ عليهم.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (١)

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢)

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٣)

ورسولُنا ﷺ « مَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ - أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الآخَرِ - إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا » (٤)

وفي حديثنا هذا أَوَدُّ أن أخُصَّ بالذِّكْرِ أمراً له شأنُه وخطرُه وآثارُه في حياة الفردِ والمجتمع، ذاك هو: **أمرُ الزَّواج**، الذي يجب أن يخضعَ لقاعدةِ الشرع « يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا » (٥)؛ فإن التعسيرَ يفتحُ أبوابَ الحرام، أو يؤدِّي إليه، والتيسيرُ يحقِّقُ الاستقامةَ، ويُعينُ عليها.

---

(١) البقرة: من الآية ١٨٥.

(٢) البقرة: من الآية ٢٨٦.

(٣) الحج: من الآية ٧٨.

(٤) مسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام، رقم ٤٢٩٥.

(٥) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم ٣٢٦٤.

obeikandl.com

إنَّ تيسير أسبابَ الحلال واجبٌ؛ لإغلاقِ سُبُلِ الحرام، فإنَّ تعسيرها يُدمِّرُ المجتمعَ بإشاعة الفاحشة، وارتكابِ المحرَّمات.

« إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ » (١)

ومن التيسير: عدم المغالاة في المهور؛ فإن ذلك يُرْهِقُ كاهِلَ الشباب، وقد يصرفهم عن الزواج، أو يَعُوق خُطاهم إليه.

إن الزواجَ أمرٌ فطريٌّ لا يصحُّ أن تقومَ في سبيله عواملُ مصطَنَعة تُعَسِّرُ وجودَه ولا تيسره، وتؤدِّي - في النهاية - إلى بوارٍ وضياعٍ في حياة الأسرة المسلمة.

إنَّ كثيراً من المظاهر التي تقترن بأمرِ الزواج - وتؤدِّي إلى الإسراف، وتكليف الزوجِ فوق طاقته - لا تؤثِّرُ على حياة أسرةٍ مَا فحسب، بل يمتدُّ تأثيرُها على المجتمع الذي تتحوَّل فيه هذه المظاهرُ إلى عاداتٍ وتقاليدٍ، يتوارثها الناسُ، وتصبح عُرْفاً سائداً في حياتهم !

إن قيمةَ الإنسان في دِينه وأخلاقه.. لا في زينته ومتاعه.

ومَن رَغِبَ في الزواج لأمرٍ غير الدِّينِ فقد أخطأَ الطريقَ، و لم يُوفَّق إلى ما يُحقِّق سعادتَه وطمأنينته.

جاء رجل إلى "سفيان بن عيينة" فقال: « يا أبا محمد، أشكو إليك من فلانة - يعني امرأته - أنا أذَلُّ الأشياء عندها وأحقرها !» فأطرق سفيانُ مَليًّا، ثم رفع رأسه فقال: « لعلَّك رَغِبْتَ إليها لتزداد عِزًّا ؟ » فقال: « نعم، يا أبا محمد » قال: « مَن ذهب إلى العِزِّ ابتُلِيَ بالذُّلِّ، ومَن ذهب إلى المال ابتُلِيَ بالفقر، ومَن ذهب إلى الدِّين

(١) الترمذي: كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، رقم ١٠٠٤.

يجمعُ الله له العِزَّ، والمالَ مع الدِّين »

ثم أنشأ - أي سفيان -يُحدِّثه، فقال: كُنَّا أخوة أربعة: محمدٌ، وعمران، وإبراهيم، وأنا. فمحمدُ أكبرُنا، وعمرانُ أصغرُنا، وكنتُ أوسطُهم. فلما أراد محمدُ أن يتزوَّجَ رَغِبَ في الحَسَبِ، فتزوَّجَ مَن هي أكبرُ منه حَسَباً، فابتلاه الله بالذُّلِّ. وعمرانُ رَغِبَ في المال، فتزوَّجَ مَن هي أكثرُ منه مالاً، فابتلاه الله بالفَقْرِ، أخذوا ما في يديه ولم يُعطوه شيئاً، فبقيت في أمرهما، فقَدِمَ علينا مُعمَّرُ بنُ راشد، فشاورتُه، وقَصَصْتُ عليه قصةَ إخوتي، فذكَّرني حديثَ رسول الله ﷺ: « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ [١] » [٢]، وقولـه: « أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً » [٣] فاخترتُ لنفسي الدِّينَ وتخفيفَ الظَّهْرِ، اقتداءً بسُنَّةِ رسول الله ﷺ، فجمع الله لي العِزَّ والمالَ مع الدِّين. [٤]

إنَّ الإنسانَ في الحياة الدنيا قد يَمُرُّ بأحوالٍ متباينةٍ، من عُسْرٍ ويُسْرٍ، وشِدَّةٍ ورخاءٍ، يغدو ويروح، ويَصِحُّ ويَمْرَضُ، ويحيا ويموت.

والمرأةُ المؤمنةُ الصالحةُ هي التي تواجه تبايُنَ الأحوال برُشدٍ وثباتٍ، ورضىً وصبرٍ، فيأمَنُ معها الرجلُ على ماله وعِرضه، فلا يرى منها إلا ما يرضي الله في جميع الأحوال، وهي له وَفِيَّةٌ، بارَّةٌ، لما من إيمانِها طهارةُ نفسٍ، ومن ذِكرها لربِّها طمأنيةُ قلبٍ، ومن توكلها عليه رضىً وثبات.

---

(١) أيْ لَصِقَتَا بالتُّرَابِ. وَهِيَ كِنَايَة عنْ الْفَقْرِ، وَهُوَ خَبَر بِمعْنَى الدُّعَاء ، لَكِنْ لا يُرَاد بِهِ حقِيقَته.
(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب الأكْفَاء في الدين، رقم ٤٧٠٠.
(٣) أحمد: باقي مسند الأنصار، رقم ٢٣٩٦٦.
(٤) حلية الأولياء: ٣/٢٩٠.

قال ﷺ: « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ »

والرجلُ المؤمنُ الصالحُ له من إيمانه أكرمُ حَسَبٍ، وأشرفُ نَسَبٍ.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

المؤمنُ وَفِيٌّ كريمٌ. يفي بعهد الله، ولا ينقُض الميثاق. ومَن كان وَفِيًّا بعهد الله كان وَفِيًّا للناس، ومَن لا يفي لربِّه فلن يكون وَفِيًّا لخلقه.

فالدينُ هو الميزان الصحيح للفضائل والأخلاق، وهو الجدير بأن يُحرَص عليه، وأن يُدعَى إليه، وأن يُستجاب له.

وإذا قام الدِّينُ حَكَماً في حياة الناس - فأُخضعت النفوسُ له - انتفى من سلوكهم ما يُنافيه أو يصُدّ عنه، وتيسَّرَ الطريقُ لمرضاة الله في كُلِّ شأن.

والتيسير فيما نحنُ فيه من أمرِ الزواج يتوقَّف على التمسك بالدين، والحرص عليه. وبه نحيا في توسطٍ واعتدال، بلا تفريط أو غلوٍّ، وبه تستقيمُ جميع الأحوال.

ولقد حثّ الإسلامُ على الزواج، ودعا إليه؛ صيانةً للفرد، وطهارةً للمجتمع، وامتداداً له، وقياماً بحقِّ الله فيما أوجب « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ (٢) فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ (١) » (٢)

(١) التوبة: ٧١.

(٢) الباءَة: الجِماع، وقيل: مُؤن النِّكاح.

فليتعاون المجتمعُ الإسلاميُّ على تيسير أمرِ الزواج وتحقيقه في سنٍّ مبكرة، وليحذر التعسير الذي يَعُوقه أو يصُدّ عنه.

« يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا »

« إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ »

والزواج بدافعٍ من الدين والحرصِ عليه يُحقِّقُ المودَّةَ والرحمةَ اللَّتَيْنِ تُشير إليهما الآيةُ الكريمة ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٣)

فاللهم آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّار.

* * *

---

(١) الوجاء: هُو رضّ الْخُصيَتَيْنِ. والْمُرَاد هَا هُنَا: أنّ الصَّوْم يقْطَع الشَّهْوَة، ويقْطَع شرّ الْمنيّ كَمَا يقْطعهُ الْوِجَاء.

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم ٤٦٧٧.

(٣) الروم: ٢١.

مسئولية البيت في تربية الفرد (١)

أخي المسلم:

من التكريمِ للإنسان أن يكون مسئولاً عن عمله. ومن الإساءة له إسقاط المسئولية عنه.

والقرآن الكريم يُحمِّلُ كُلَّ إنسانٍ مسئولية، ويجعله مسئولٌ عن حواسه أنْ يستعملها فيما خُلِقَتْ له من القيام بما أوجب الله، والكَفِّ عمَّا حَرَّم.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

والإنسانُ مسئولٌ عمَّا استرعاه الله، وما ائتمنه عليه؛ ففي الحديث المُتَّفَق عليه عن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه. الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِه وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه. قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه. وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه » (٢)

يُسأَلُ الإنسانُ عمَّا استرعاه الله، حَفِظَ ؟ أم ضيَّع ؟

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٤.

بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

والآباء مسئولون عن رعاية أبنائهم، وتوجيههم الوجهة الصالحة كما أمر الله وبيَّن رسولُه ﷺ: « مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ » (٢)

والطفلُ يتلقَّى من والديه في صغره، ويُقلِّدهم فيما يعملون. فليعلم الآباءُ أن الأبناء ينتقلون ويتأثرون بهم، فليكن الأبُ في سلوكه قُدوةً لأهله، فإن الابن يتعلَّمُ من عملِ والده أكثرَ ممَّا يتعلمُ من قوله. ويَا لَهَا من كارثة إذا تناقضَ القولُ والفعلُ أمام الطفل، أو تناقضت وسائلُ التربية والتعليم، بأن دعا هذا إلى الفضيلة، وأغرى الآخرُ بالرزيلة !

ورعايةُ الأبناء تقتضي أن يُلاحظَ الأبُ سلوكَ ابنه، وأن يغرسَ فيه من العادات ما يسمو به، ويُحقِّقُ الخيرَ له، ففي الحديث المُتَّفَق عليه، عن أبي حفصٍ عمرَ بن أبي سلمة رَبيب رسول الله ﷺ قال: « كُنْتُ غُلامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ (٣)، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ » (٤)

---

(١) الأعراف: ٦-٩.

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب متى يُؤمر الغلام بالصلاة، رقم ٤١٨.

(٣) أي تتحرك فتميل إلى نواحي القصعة، ولا تقتصر على موضع واحد.

(٤) البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم ٤٩٥٧.

ترى الرسولَ ﷺ يُعلِّمُ الصَّبيَّ آدابَ الأكل، ويتأثر الغلامُ مِمَّا سَمِعَ ويتعوَّد، ويُخبر به إخبارَ مَن سَعِدَ بما سَمِعَ، واتَّبَعَ ولم يبتدع « فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ ».

يؤمَرُ الطفلُ بالطيِّب من الأعمال، ويُزجَرُ عن سيئها؛ ليعرف الطريقَ، ويلتزم شرعَ الله، وينشأ على الطاعة لأمْرِ ربِّه والإقبال عليه، والبُغض للمعصية والإعراض عنها.

في الحديث المُتَّفَق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا؛ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ؟ » (١)

الحلالُ والحرامُ يتعلَّمه الصبيُّ، فيرد هذا ويقبل ذاك. والرسول ﷺ يقول للحسن وهو صبيٌّ صغيرٌ: « كِخْ كِخْ »، وهي كلمةٌ يُزْجَرُ بها الصبيُّ عمَّا لا يليق أو يُستَقْذَرُ من الأعمال.

أخي المسلم: قد تأخُذنا العاطفةُ على الأبناء، فنوفِّرُ لهم من الأسباب ما يُيَسِّرُ الانحرافَ والضياعَ، ونحن نظُنُّ أنَّنا نُكرمهم !

إن إكرامَ الأبناء في تربيتهم، وإعدادهم لتحمُّل أعباء الحياة. وغَدُنَا - نحن المسلمون - يستوجبُ إعدادَ الإنسان إعداداً يتَّفقُ مع المخاطر والشدائد التي تواجهنا، والتي تنشد الإنسانَ الصحيح في عقيدته وعلمه وعمله.

الأبناءُ هم رجالُ المستقبل، وهم أمانةٌ في أعناقنا، فَلْنَتَّقِ اللهَ فيهم، ولنكُن قدوة لهم في أعمالنا وأقوالنا، ولنُجنبهم سُبل السوء ورُفقاء السوء، ولنجعل عاطفتنا نحوهم خاضعة لمرضات ربِّنا؛ حتى نستطيع أن نأخذ بأيديهم إلى ما تعزُّ به أُمَّتنا، وننعم برضى الله تعالى ورحمته. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ ﴾ (٢)

---

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ، رقم ١٧٧٨.

(٢) التحريم: ٦.

مسئولية البيت في تربية الفرد (٢)

أخي المسلم:

ينشأ الطفلُ في أسرةٍ ترعاه، وتقومُ على تربيته، والمحافظةِ عليه.

ويكتسب ما يكتسبه في نشأته مِمَّا يقع حوله، من سلوكٍ يُقلِّده أو كلمةٍ يُرددها.

ولذا فإنَّ أوَّلَ مَن يُسأَلُ عن أعداد الفرد وتربيته هو (البيتُ) الذي ينفردُ بهذه التربية فترةً من الزمنِ قبلَ أن تُشاركه المَدرسةُ أو المجتمع، ولا ينقطع تأثيرُ البيت في الإنسان في أيِّ مرحلةٍ من مراحله.

وكم من بيوتٍ تُقدِّمُ للمجتمع إنسانا سويًّا يُصلِح ولا يُفسِد، وأخرى تُقدِّم مَن يسعى بالفساد، ويُسيء إلى نفسه والمجتمعِ من حوله.

وهذا وذاك قد نشأ في مجتمعٍ واحد. لكنَّ البيت هنا غيرَ البيت هناك.

وشتَّان ما بين بيتٍ تحكُمه الفضائلُ، وتسوده الأخلاقُ، وآخر تعبثُ به الأهواءُ والشبهاتُ، فلا وقارَ لأبٍ، ولا احترامَ لأُمٍّ، ولا محافظةَ على آدابٍ أو فضائل. والبيتُ كُلُّه مشغولٌ فيما يشتهي، مأخوذٌ بمظاهر الزينة والمتاع.

إنَّ الطفلَ - منذ نشأته - يحتاج إلى مَن يُشغل بأمره قبل مجيئه، وبعد ولادته.

والأسرةُ مسئولةٌ عن اختيارِ أبٍ له وأُمٍ زينتُهما خُلُقٌ وإيمانٌ.

وإن فرَّطت الأسرةُ في حُسْنِ الاختيار، أو مَالَتْ إلى مظاهرِ الزينة والمتاع - دون نظرٍ إلى الأصل الذي تُصانُ به البيوت - فقد فتحت على نفسِها، وعلى المجتمع بابَ فتنةٍ وفسادٍ كبير.

لذا أُمِرْنَا - من أَوَّلِ الأمرِ - أن نتخيَّرَ.

« فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » (١)

« إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ » (٢)

والطفلُ بعد ذلك يحتاجُ إلى مَن يُشغَل به؛ ليؤدبه ويوجهه، وهو أمانةٌ عاليةٌ تحتاج إلى حراسةٍ واعيةٍ - ذات فقهٍ وبصيرةٍ - تُعلِّمه ما يحل وما لا يحل، وتُبصره بما يجب أن يكون؛ حتى ينشأ مُهيَّأً لمعالي الأمور، مُعَدًّا لتحقيق ما يجب أن يكون.

وتعالَوْا بنا لنرى توجيهَ القرآن لنا في تربيةِ أطفالنا، وإعداد أنفسنا، وحماية مجتمعنا من الفساد، ونرى ما بَيَّنَهُ الرسول ﷺ وحقَّقه في تربية هذه الأمة وإعدادها وحماية صغيرها وكبيرها، والمحافظة على إيمانها واستقامتها.

نقرأ في القرآن الكريم توجيهاً للمؤمنين والمؤمنات يُؤمَرُ الرسول ﷺ بتبليغه بهذا الأمر ﴿ قُل ﴾ وفيه من العناية بالمُبَلَّغ ما فيه.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

---

(١) مسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم ٢٦٦٢.
(٢) سبق تخريجه.

أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

ونقرأ في السورةِ نفسها (سورة النور) توجيهاً للمؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)

أرأيتم.. إن الطفلَ يُذكَرُ في الآيات؛ ليُعلَم ما يجب أن يكون عليه صغيراً لم يبلغ الحُلم، وكبيراً قد بُلِّغَ آداب وفضائل يتربى عليها الصغيرُ فيدرك ما يحل وما لا يحل، فتُصان الأسرة من التفكك والانحلال، ويصان المجتمع من العبث والفساد، وتكون الأمة - في تماسكها - كالجسد الواحد، يؤدِّي كُلُّ عضوٍ فيه ما خُلِقَ له.

---

(١) النور: ٣٠، ٣١.

(٢) النور: ٥٨، ٥٩.

والرسول ﷺ يتعهد الطفلَ الصغير بنفسه وهو يأكل معه، يُعلّمه ويوجهه.

« يَا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » (١)

ويتعوَّد الغلامُ على ما تربَّى عليه، ويتمسك به ولا يحيد عنه، ويقول: « فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ »

ونراه ﷺ ينهر الحسنَ بنَ عليٍّ وهو صبي ويزجره عندما أخذ تمرةً من تمرِ الصدقة، وجعلها في فيه، ويقول له: « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ؟ » (٢)

فلنُحقّق ما وَجَبَ علينا في تربيةِ الفرد وإعدادِه؛ لِنصُونَ أُمَّتَنا، ونُبقِي عليها متماسكةً مترابطةً، تؤدِّي رسالتَها في إعلاء كلمة الحقِّ.

والأُمَّةُ لا تبقى إلاَّ بالأخلاق، ولا تُحفَظُ إلاَّ بالدين.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) العنكبوت: ٦٩.

السبيل لإعداد إنسان الغد

أخي المسلم:

لكُلِّ شيءٍ غاية. والأمورُ بغايتها، والأُممُ تصوغُ إنسانَ الغدَ، وتأخذُ بالأسباب التي تُحقِّقُ الغايةَ التي تسعى إليها.

ولا أعرف غايةً أبَرّ وأكرم من غايةِ أُمَّتنا الإسلامية التي وجَّهها القرآنُ الكريم إليها، وأمر بإخضاع كُلِّ شيءٍ لها.

غايةُ أُمَّتنا إعلاءُ كلمةِ الله في كلِّ شأنٍ من شئونها. وفي ذلك عِزُّها ونصرُها، وفي ذلك - أيضاً - تحقيق الأمن والسلام للإنسانية جميعاً.

والأُمَّةُ التي تكون غايتُها إعلاء كلمةِ الله في كُلِّ شأنٍ من شئونِها لا بُدَّ أن يُعَدَّ إنسانُ الغَدِ فيها بما يتَّفِقُ مع هذه الغاية: اعتقاداً، وعلماً، وعملاً.

وأُمَّتُنا الإسلامية - وأمامها من التحديات ما لا يَخفى على أحدٍ - عليها أن تُعِدَّ الإنسانَ بالإيمانِ الموجِّهِ للنفوس إلى الخير والإصلاح، وبالعلم الذي تنشده النهضة في جميع شئونِ الحياة، بحيث لا تكون الأُمَّةُ الإسلامية في قبضةِ غيرها.

الإنسانُ هو الأساس الذي تقومُ به ومن أجله الحضارةُ والنهضةُ. والعناية به هي السبيل للنهوض بأُمَّتنا الإسلاميةِ من كَبْوَتِها. ولا تصلح الأشياءُ إلا بإيجاد الإنسان الصحيح.

من أجل هذا أرسل الله الرسلَ، وأنزل الكُتُبَ.

والنِّعم في أيدي الناس مُسخَّرة من الله ﷻ. وبالإنسان يتحدَّد اتجاهُها إلى شُكْرٍ أو كُفْرٍ.

ووسائلُ التربية والثقافة والإعداد يجب أن تتوجَّه إلى توحيدِ هذه الأُمَّةِ، وجَمْعِ كلمتِها.

لا بُدَّ من إعداد إنسان الغدِ بما يتناسبُ مع خيرية هذه الأمة وفضلِها.

إنني أوقِنُ أن أُمَّتَنا الإسلامية لن تموت مهما بَدَت مظاهرُ الضعف والسكون فيها، وعلينا أن نبحثَ - في غيرِ يأسٍ - في وسائل النهوضِ بأُمَّتنا؛ فإنها أمةٌ باقيةٌ بإذن الله إلى قيام الساعة.

وهي - بفضل الله - تملك أن تبدأ البدايةَ الصحيحة، بإعداد الإنسان، وباتِّساق أسلوب التربية والثقافة والإعداد؛ إذ لا يخفى ما يترتب على تناقض وسائل التربية من صراعٍ داخل الأُمَّة الإسلامية نفسها، وما يقع من شرٍّ بين أبنائها.

فكيف نُخضع جميعَ وسائل التربية والإعداد لتوحيدِ هذه الأمة وجَمْعِ كلمتها ؟

وما السبيلُ لإعداد إنسانِ الَغِد لأخطار الغَد ؟

إنَّ أصحاب المذاهب - في شرقٍ أو غربٍ - يعملون على صياغةِ الإنسان ليكون لهم، لا لأُمَّتِه ! ويُنفقون - في سبيل ذلك - من الجُهد والمال ما لا يخفى على أحدٍ.

وكُلُّنا يعرف ما يفعله الغربُ وما يقدِّمه لمؤسسات (التنصير)؛ لتكون طلائع له في صياغةِ إنسانِ الغد لصالحه. وكُلُّ ما وقع من اغتصابِ أرض المسلمين - في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ - قد مُهِّدَ له من قبل بالاستيلاء على الإنسان.

ومن الخطأ أن نظُنَّ أن ما وصلت إليه أُمَّتُنا الإسلامية يستحيل علاجه، ومن الخطيئة أن ندع اليأسَ يتسربُ إلى النفوس، وأن نترك لأولئك الذين لا يريدون لأُمَّتنا إلا مزيداً من الفشل وذَهاب الريح، أن يفرضوا عليها الرضى بالواقع، أو يجعلوها تؤمنُ بالتبعية لغير دِينها ومرضات ربِّها. ولقد مرَّت على أُمَّتنا الإسلاميةِ فتراتُ فُتُورٍ أو خُمُولٍ يراها أهلُ الكُفْرِ مَوَاتاً، ويرَوْنَ حِماهَا بَواحاً.

فإنَّ لها من مقوِّماتِها ما يبعَثُ الحركةَ فيها، ويُجدِّدُ الحياة.

لها من عقيدتها وشريعتها ما يجعلها تتحوَّل من حالٍ إلى حالٍ، من ظُلماتٍ وخمودٍ وخمولٍ وموات، إلى نورٍ وحركةٍ حيَّةٍ واعيةٍ راشدةٍ.

فهل يتفاعل المسلمون - بمقوِّماتها - مع الأسباب تفاعُلَ شُكْرٍ لا كُفران له، فتنبت الأرض، ويُنتج المصنع، ويعمر المسجد، ويُشغل الفراغ، وتذهب الأحقاد ؟

إن الأمرَ جدٌّ لا هَزْلَ فيه، وخطرٌ مُحْدِقٌ يحتاجُ إلى إعدادٍ أو حذرٍ، فالميدان يتَّسعُ لكُلِّ جهدٍ من كبيرٍ وصغيرٍ، ورجلٍ وامرأةٍ، وطالبٍ وعامل.

ورجاءنا في الله أن يكون إعدادُ النشء على مستوى الأحداث التي تُحيط بأُمَّتنا الإسلامية، وأن تكون وسائلنا متَّسقة لا تناقضَ بينها؛ فإن واقعنا يستوجب قيامَ المصنع، ووجود الغوَّاص في البحر، والطيَّار في الجو، والباحث في المعمل، كما يحتاج إلى قلم الكاتب، ودفتر المحاسب، وفقه العالم، وتدبير الحاكم. وما لا يتمُّ الواجبُ إلاَّ به فهو واجبٌ. وكُلُّ ذلك في اتِّساقٍ يُحقِّقُ الغايةَ التي نعملُ لها، وهي إعلاء كلمة الله ونُصرة دينه.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) العنكبوت: ٦٩.

إنسانُ الغدِ وما يجبُ أنْ يكونَ عليه

أخي المسلم:

إنسانُ الغَدِ في أُمَّتِنا الإسلاميةِ يواجهُ - كغيره - مُستقبَلاً مشحوناً بالمخاطرِ، ويرى من أسبابِ القوَّةِ في أيدي المتنافسين ما يُهدِّدُ العالَمَ كُلَّه. ولا يقتصر الدمارُ على بقعةٍ دون أخرى، ولا يزال التنافس يدعو إلى مزيدٍ من التفوّق في أسباب الدمار والخراب.

وإذا كُنَّا نرى اليومَ أقواتَ الجياعِ تُحشَرُ في بطون المدافع، فإن القوَّةَ الرهيبةَ التي يُحققها التنافسُ المسعورُ لن تَدَعَ أحداً في مأمَنٍ ممَّن أشعلوها، أو سكتوا عنها، أو جاعوا بسببها، أو شبعوا بها.

وإذا كان لا بُدَّ من البحث عن الأسباب التي قادَت الإنسانيةَ، أو دفعتها إلى هذه الهاوية، فإننا سننتهي - في النهاية - إلى هذه الحقيقة، وهي: **إصلاح أمْرِ الإنسان**؛ فإن إصلاحَ حال الإنسانية لا يتِمُّ - أبداً - إلاَّ بإصلاح الإنسان.

فالإنسانيةُ تحتاج إلى الإنسانِ الصحيح في إيمانه وسُلوكه. والدِّين ما نزل إلاَّ لهداية الإنسانِ، وإرشادِ الإنسان، وإصلاح الإنسان. وبغير الدِّين لا يصلح، وبغير ما جاء به لا يستقيمُ أمرُه.

ومن هنا تبدأ مهمةُ المسلم في واقعنا المعاصر.

تبدأُ بإدراكِ ما معه، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، وما يُقدِّمه دينُه لإنقاذ الإنسانية من خسارةِ الدنيا والآخرة.

إن مخاطبةَ الإنسانية بدِيننا - دونَ أن يرى أثرَه في حياتنا وفي واقعنا وفي روابطِنا

- يؤدِّي إلى استخفافِ الإنسانية بنا، وانصرافِها عن دِيننا، وهي أحوج ما تكون إليه.

نعم. علينا أن ندعوا الناسَ جميعاً إلى هذا الدِّين، وأن نُبلِّغه كما أمرنا الله ﷻ.

ولكن علينا - في الوقت نفسه - أن ندلَّ العالَمَ عليه بما يُحقِّقه فينا، وفي روابطنا. ومُعلِّمُ نفسه ومؤدبُها أحقُّ بالاحترام من مُعَلِّمِ الناسِ ومؤدِّبهم.

فإنسانُ الغَد - إذن - مُطالَبٌ بالإصلاحِ والجِدِّ في مُحيطِ أُمَّته، وهي تبني نفسَها في عصرٍ غداً التفاوتُ بينها بعيداً، فلزم أن يضاعَفَ الجهدَ، وأن يكون السَّهَرُ والكَد، وأن تُعرَّفَ قيمةُ الوقت، فلا يُهدر في غيرِ منفعةٍ، ولا يضيعُ في غيرِ فائدةٍ.

والكُلُّ مسئولٌ عن عُمره فيما أفناه.

وإنسانُ الغَدِ مطالَبٌ - كذلك - أن يُبلِّغَ دينَ الله للعالمين. فنحن بهذا الدين، ولن نكونَ بغيره، وصلاحُ الإنسانيةِ به، ولن يكون بغيره.

ومع إدراكنا لتعدد المشاكل، وما نحن عليه، فإنَّ الأمرَ كُلَّه يتوقَّفُ على إيجاد الإنسان الذي يُصلِحُ ولا يُفسِدُ، ويُخضع هواه لمرضاتِ ربِّه، كما أمر الله ﷻ.

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

وهذا يحتاجُ إلى تنسيقٍ وإعدادٍ، وتدريبٍ، وتخطيطٍ واعٍ، تُقوَّمُ وسائلُه، وتُرصَدُ نتائجُه.. يحتاج أن تتعاون أُمَّتُنا في جميع المجالات، وأن يكونَ تعاونُها صادقاً بارّاً، ذا غايةٍ راشدة. ونحنُ أُمَّةٌ قد حُدَّدت غايتها، واستبان سبيلُها، ووفَّت لها التجاربُ بالنتائج، فلم تعد في حاجةٍ أن تُجرِّبَ لغيرها ما يصلح به شأنها.

---

(١) الأعراف: ٥٦.

لقد عرفَت - من تجربة تاريخها - أنها لا تنتصر إلاَّ بنَصر دين الله في حياتها كُلِّها، واستبانَ لها أن التعلُّقَ بأيِّ مذهبٍ أو شعارٍ مُنَافٍ لدين الله، يقُودها إلى سرابٍ خادعٍ يقطَعُ أنفاسها، ويُبدِّدُ طاقاتها، ويُفسِدُ روابطَها.

فهي تنشدُ إنسانَ الغد مُزوَّداً بتجربة التاريخ على فِقهٍ بدينه، ومعرفةٍ بعصره، يعالج قضايا عصره بفطرة دينه، ولا يحيا بدينه بعيداً عن الواقع؛ **فمِنَ الخطأ - بل من الخطيئة - أن تُثارَ قضايا الدِّين بعيداً عن الواقع، أو يُعالَج الواقع بغير فطرة الدين**؛ فالدِّينُ قد أنزله الله لإصلاح النفوس وهدايتها، وإصلاح الواقع - أيّ واقع - فلا بُدَّ أن يُهيمنَ على النفوس، وأن يقودها - دائماً - إلى ما يجب أن يكون، وأن يهديها للتي هي أقوم.

إنه الحقُّ. وهل تُقَادُ النفوس أو تصلح إلاَّ باتِّباع الحقِّ ؟

فلا بُدَّ من تغليبِ أمر الله على هَوى النفس.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (١)

الحقُّ جديرٌ أن يُتَّبع، وبه تصعد أُمَّتُنا وتخطُو في غَدِها إلى ما يُحقِّقُ رِضا الله في كُلِّ شأنٍ من شئونها.

أخي المسلم: إنسانُ الغَدِ يجبُ أن يبصر الواقعَ، ويُقدِّر العواقب، وأن يكون جادّاً صادقاً في فقهه لدِينه، ومعرفته لمتطلبات عصره وزمنه، مُهْتَمّاً بأمرِ أُمَّتِه الإسلامية؛ لتؤدي رسالتها في العالمين، واثِقاً من نَصر الله لها إنْ توحَّدت في إعلاء كلمةِ الله.

---

(١) المائدة: من الآية ٤٨.

وأخذت بالأسباب التي أمر اللهُ بها ورسولُه.

إنسانُ الغَدِ هو (المسلم) الذي جعل الله له نوراً يمشي به في الناس. فيه نَصُون الغد، ونطلب النصرَ، وننشد السلامَ والأمن.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) العنكبوت: ٦٩.

obeikandl.com

الأخوة الإسلامية (١)

أخي المسلم:

إنَّ الناسَ إذا تنافسوا على الدنيا تفرَّقوا واختلفوا، وإذا تنافسوا في التقوى والعملِ الصالح اجتمعت قلوبُهم، وائتَلَفَتْ بفضلِ الله ورحمته.

إن الإيمانَ الصادق يُطهِّرُ النفسَ من الحقد والحسد، ويُخضعُ الهوى لمرضاتِ الله وطاعته.

ولا أُلِفَةَ بين الناس إلاَّ به، ولا أمْنَ ولا نجاةَ إلا معه.

﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢)

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٣)

إنَّ الإسلامَ ينهى عن كُلِّ ما من شأنه أن ينالَ من هذه الأخوَّةِ، أو يُسيء إليها، أو يُعكِّر صَفْوَ النفوس، أو يُوقِع الشَّرَّ بينها.

ينهى الإسلامُ عن الحسد « لا تحاسدوا »، والحسدُ: تَمَنِّي زوال الخير عن الغير.

وإذا كان الإنسانُ - بطبعه - يكرهُ أن يفوقَه أحدٌ من جنسه، وقد يَجُرُّ هذا إلى الحسد المذموم، فإن الإسلام - بما يُقدِّمه من فرائض، وما يدعو إليه من فضائل - يُعينُ

---

(١) الجن: من الآية١٣

(٢) مريم: ٩٦.

(٣) الحجرات: من الآية ١٠.

الإنسانَ على مقاومة الشر، ويحفظه - بفضل الله - من الأمراض النفسية الخبيثة التي تقطع الروابطَ، وتُفسِد الصلات.

إن استقامةَ النفس على الإيمان بالله وطاعته تُحقِّقُ الاعتدالَ والرضا بما قَسَمَ الله، ولا سبيل إلى طُهْرِ النفوس إلاَّ بحُسن توكلها على الله، وإيمانها بقَدَره، ورضاها عن الله في جميع الأحوال.

وإذا كان هناك تطلُّع للنفس، ورغبة في التفوق على الأقران، فإن الإسلام لا يُهمِلُ ما في طَبْع الإنسان من غرائز، بل يُوجِّهها - في إيجابيةٍ - إلى ما يرفعُ شأن الإنسانِ، ويُحقِّق البِرَّ بينه وبين أخيه.

في الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « لا حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا » (١)

فينبغي ألاَّ يُغْبَط أحدٌ إلاَّ على هاتين الخَصْلتين.

إن هذه الفضائل جديرة أن يتمنَّاها الناسُ، وأن يتنافسوا عليها؛ فإن تنافسهم عليها يزيد من مودَّتهم، ويُحقق الخيرَ بينهم.

وهكذا نرى الإسلامَ يوجِّه دوافعَ النفس إلى ما يُحقِّق الرِّفعةَ لها، والأُلفَةَ بين بني جنسها.

وينهى الإسلامُ - كذلك - عن النَّجْشِ « وَلا تَنَاجَشُوا »، وقد فسَّره كثيرٌ من العلماء بالنَّجْشِ في البيع، وهو: أن يزيد في السلعة مَن لا يريد شراءها؛ إمَّا لنفع البائع لزيادة الثمن له، أو بإضرارِ المشترى بتكثير الثمن عليه.

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط بالعلم والحكمة، رقم ٧١.

ولا شَكَّ أن ذلك يُوغِرُ الصدور، ويُوقِعُ العداوةَ بين الناس.

وإذا فُسِّرَ (التَّحْشُ) بما هو أعمُّ من ذلك، فإن أصل التَّحْش في اللغة: إثارة الشيء بالمكر والحيلة والمخادعة، فيكون المعنى: لا تُخادِعُوا، ولا يَحْتَل بعضُكم بعضاً بالمكر والاحتيال.

إذا فُسِّرَ التَّحْشُ بهذا المعنى العام دخل في التناجش المنهي عنه جميع أنواع المعاملات بالغشِّ والمكرِ والخداع. ولا شَكَّ أن من أعظم أسباب الفُرقة: الإضرار بالناس، أو المكر بهم.

وينهى الإسلامُ - كذلك - عن التباغض « وَلا تَبَاغَضُوا »، وهو ما يكون من هوى النفس - لا من غيره - على حُرمَاتِ الله، فإن المسلمين جعلهم الله أخوة، والأخْوَةُ يتحابون فيما بينهم ولا يتباغضون.

ولا يكتفي الإسلامُ بالنهي عن التباغض، بل يدعو إلى ما يُزيل التباغض، ويُحقِّقُ المودَّة. وقد قال الرسول ﷺ: « لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ » (١)

وقد حَرَّم الله على المؤمنين ما يُوقِعُ بينهم العداوةَ والبغضاء، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٨١.
(٢) المائدة: ٩٠، ٩١.

رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾[1]

وحرَّم الإسلامُ المشي بالنميمة؛ لما فيها من العداوة والبغضاء، ورخَّصَ في الكذبِ في الإصلاح بين الناس.

روى الإمام أحمدُ عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللَّهُ، وَشِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ، الْبُرَآءَ الْعَنَتَ » [2]

وهكذا نرى الإسلامَ ينهى عن كُلِّ ما من شأنه أن يقطَعَ الروابط، أو يسيء إليها « لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »

ولا يكتفي بذلك - أي بترك ما من شأنه أن يُسيء - بل يطلب من الأعمال ما يُحقِّقُ المودَّةَ، ويُقوِّي الصلة « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ » [3]

وهكذا يُؤمَرُ المسلمُ بكُلِّ ما يُوجب تآلف القلوب واجتماعها، ويُنْهَى عن كُلِّ ما يُوجب تنافر النفوس واختلافها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ

---

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) أحمد: مسند الشاميين، حديث عبد الرحمن بن غنم الأشعري رضي الله عنه رقم ١٧٣١٢.

(٣) سبق تخريجه.

﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: إن فُرقَةَ المسلمين واختلافهم لم تأت إلا نتيجةَ البُعْدِ. وإن التمسك بما أمر الله يُحقق المودَّةَ والتراحم، وإن أخوة المسلمين أساسُ نصرهم ورفع شأنهم ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ ﴾ (٢)

ولا يحل لمسلمٍ أن يوصلَ الأذى لأخيه بأيِّ وجهٍ من الوجوه، من قولٍ أو فعلٍ.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣)

خرَّج الإمامُ أحمدُ من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « لا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ، وَلا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ » (٤)

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » (٥)

---

(١) الحجرات: ١١.

(٢) الأنفال: من الآية ٤٦.

(٣) الأحزاب: ٥٨.

(٤) أحمد: باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان رضي الله عنه رقم ٢١٣٦٨.

(٥) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم ٤٦٩٠.

الأخوة الإسلامية (٢)

أخي المسلم:

في زَحْمَةِ الحياة وتنافُسِ المتنافسين على الزينة والمتاع، قد ينسى الناسُ المقوِّمات الأساسية التي تصون مجتمعَهم من الدمار، وتحفظه من الفُرقة والضياع.

إن مجتمعَنا الإسلامي تقوم مودَّتُه على أساسِ الإيمان، وترتبط أُلْفَتُه بشرائع الإسلام. فإنْ فَرَّطَ في إيمانه ذهبت المودَّةُ، وقامت الشحناء. وإنْ ضيَّع شرائعَ دِينه تحطَّمت الروابطُ، واستشرت البغضاء.

إنَّ أَمْنَ الناس لا يقومُ بغير الإيمان، وسلامَهم لا يتحقَّقُ بغير الإسلام.

وفي غيبة الإيمان وشرائعه يتحكَّمُ الهوى في سلوك الناس ومعاملتهم، فلا يرى الإنسانُ الحقَّ إلاَّ في منفعته، ولا يُبصِرُ العدلَ إلاَّ فيما يعود إليه، دونَ نظرٍ أو تقديرٍ لحقوقِ الآخرين.

إن الله حين طَلَبَ أن يقومَ الناسُ بالقسط، نادى المؤمنين وأمرهم بأن يكونوا قوَّامين بالقسط، شهداء لله؛ لأن ميزان العدل لا يقومُ به إلاَّ مؤمنٌ يخشى ربَّه، ويرجو رحمته.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

إن التخلُّصَ من المؤثرات، مؤثراتِ حُبِّ النفس والميلِ إلى ذوى الأرحام والقُربى،

(١) النساء: ١٣٥.

والتجرد من كُلِّ اعتبارٍ غير تقوى الله ومرضاته. إنَّ إقامة العدل - على النحو الذي أمر الله به - يحتاجُ إلى جهادٍ شاقٍّ لا تتعلق فيه النفوس بشيءٍ إلاَّ بحُبِّ الله ومرضاته، ومن ثَمَّ كان للنداءِ بصفةِ الإيمان في هذا المجال قيمتُه، وكان له مغزاه ودلالته.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾

وكانت أُخوَّة الإيمان هي الأساس للتعاون على أداء الحق وإقامة العدل الذي يتساوى فيه القريبُ والبعيد، والعدوُّ والصديق، والغني والفقير.

ولذا جاء النداءُ لهم مجتمعين لا متفرِّقين؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يُحقِّقوا الخير فيما بينهم - ولا بين الإنسانيةِ الظامئة إليه - إلا بموالاة بعضهم بعضاً، وحُبِّ بعضهم بعضاً.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

فإيمانُ المؤمنين مُحقِّقٌ للخير لهم وللناس من حولهم، وهم يحملون شرع الله ويحققون العدل الذي أُمِروا به ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

وإذن فإن أكبرَ خَطَرٍ يواجه الإنسانية على الإطلاق هو غيبةُ المؤمنين عن ميدان الحياة.

بل أكبرُ كارثةٍ تحل بالمسلمين وبالعالم من حولهم، أن يُفرِّطوا في أخوتهم، أو يتنكروا لروابطهم ومقومات حياتهم، وأسباب عزِّهم ورفعتهم.

---

(١) الأنفال: ٧٣.

(٢) المائدة: من الآية ٨.

إنهم بالإسلام، ولن يكونوا بغيره. وإن هم ابتغوا العزَّ في غيره نَالَهُم من الذُّل والهوان ما نَالَهُم، ولن يرفعهم من ذُلٍّ وهوانٍ إلا تمسكهم بكتاب الله، واعتصامهم به.

وكُلُّ عدوٍّ يريدُ أن يكون له الغلبة عليهم لا يتمُّ له ما يريد إلاَّ بإبعادهم عن دِينهم، ورَدِّهم بعد إيمانهم كافرين.

ولن يستطيعوا أن يُفوِّتوا عليه أمره، وأن يُبطلوا كيده، إلاَّ إذا ائتلفت قلوبُهم بالإيمان، واعتصمت بحبل الله و لم تتفرَّق.

وكُلُّ شعارٍ يُنادَى به غير هذا الشعار ضَلالٌ في ضلالٍ في ضلالٍ، يزيد في محنتهم، ويُحكم قبضةَ العدوِّ عليهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: إن أخوَّةَ الإيمان ليست عاطفةً بَلْهَاء، أو عصبيةَ دمٍ أو جنسٍ أو لون، إنما

(١) آل عمران: ١٠٠ - ١٠٣.

رسالةُ حياةٍ، رسالة حُبٍّ في الله، وتجرُّدٍ لمرضاته، رسالة إخضاع الهوى لما جاء به المبعوث رحمةً للعالمين « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » (١)

إن أخوَّةَ الإيمان رحمةٌ للعدوِّ وللصديق، للقريب وللبعيد، للغني وللفقير؛ لأنها أخوَّة رسالةٍ تُنصف المظلومَ، وتأخذُ على يدِ الظالم.

فإن شُغِلَ المسلمون عن هذه الأخوة، وركنوا إلى المؤثِّرات التي تصرفهم عن القيام برسالتها - من حُبٍّ لله ورسوله، وجهاد في سبيله - تعرَّضوا لغضبٍ ومَقْتٍ من الله، وتعرضت الإنسانية من حولهم لشرٍ وفسادٍ كبير.

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: إن المحافظةَ على أخوَّة الإيمان - بالتمسك بأسبابها - صيانةٌ للأمة من الدمار والضياع، وحمايةٌ للإنسان من الشرِّ والفساد. وإنْ فرَّطنا فيما أُمرنا به، كُنَّا كَمَن خرَّبَ بيته بيده ! وكان اللومُ علينا، لا على عدوِّنا.

نعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا.

---

(١) ذكره المناوي في "فيض القدير" (٥/٢٧٥) وقال: خرَّجه الحسنُ بن سفيان وغيرُه. وقال ابن حجر: ورجاله ثقات، وصحَّحه النووي في الأربعين.

(٢) التوبة: ٢٤.

البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ

أخي المسلم:

الأخلاقُ الفاضلةُ تُعلي شأنَ صاحبِها، وتُثقّلُ ميزانَه يومَ القيامة.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ » (١) أي: الذي يتكلّم بالفُحْشِ وساقطِ الكلام.

والأخلاقُ التي تقومُ على صدق الإيمان تَبرُّ حياةَ الناسِ، وتؤلّفُ بينهم، بفضلٍ من الله وتوفيق ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (٢)

روى مسلمٌ عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » (٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ. وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ:

---

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حُسن الخُلق، رقم ١٩٢٥، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) آل عمران: من الآية ١٥٩.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم ٤٦٣٢.

obeikandl.com

الْفَمُ، وَالْفَرْجُ » (١)

والأخلاقُ الفاضلةُ ليست بِمَعْزِلٍ عن حياةِ الناس، ومعاشرتُهم ليست نَمَطاً من السلبيةِ والعُزلة، وإنما هي جهادٌ صادقٌ في كلِّ ميدان بما يُنَاسِبُه.

إنها قد تُرى في ميدانِ القتالِ شجاعةً وبسالةً، وتصحبه إقبالاً عند الفزع وعِفَّةً عند الطمع.

وتُرى في المعاملة صِدْقاً، وأمانةً، ووفاءً بالعهود والعقود.

تُرَى في ساعةِ العُسْرَةِ صبراً واحتساباً، وفي اليُسْرِ شُكْراً وذِكراً، وتواضعاً وبَذْلاً وعطاءً بلا مَنٍّ أو أذَى.

ولقد جَمَعَت آيةُ البِرِّ ما جمعت من الخصال وفضائلِ الأعمال ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (٢)

صفاتٌ جامعةٌ شاملةٌ، ما تركت باباً من أبوابِ الخير إلاَّ ودخلت فيه، ولا ميداناً

---

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حُسن الخُلق، رقم ١٩٢٧، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ.

(٢) البقرة: ١٧٧.

من ميادينِ البسالةِ والشجاعةِ والتضحيةِ والصبرِ إلاَّ ورُئِيَ أثرُها، وظهر فيه معدنُها.

لقد شملت ما هو ظاهرٌ يراه الناسُ ويشاهدونه، وما هو باطنٌ يرتبطُ بالنيَّةِ والقَصْدِ: (إيمانٌ بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتابِ، والنبيِّين).

وهكذا تُرى الأخلاقُ - في كُلِّ ميدانٍ - تعملُ عملَ المجاهد في ميدانِ الشرف والبسالة، يدافعُ عن غايته، ويرفع سيفَه ويُخفضه؛ استجابةً لمبدأ، ويُلقي بنفسه في أُتونِ معركةٍ يجودُ فيها بروحه؛ ليمنحَ الحياةَ مَن وراءه بإذن ربِّه.

فالأخلاقُ ليست نوعاً من الدِّعَة والسُّكون، وإنما هي حركةُ حياةٍ بارَّة راشدة، عادلةٍ صادقةٍ، وهي ترتبطُ بالعقيدة فتمنحها رُوحَ التجرد من المناهج، والتخلُّص من الرياء، فلا ينهي صاحبُ الخُلُقِ عن شيءٍ ويأتيَ مثله، ولا يبتغي بما يعمل إلاَّ وجْهَ ربِّه.

أخي المسلم: أخلاقُ هذا الدِّين مستمدَّةٌ من عقيدته، ومنهاجُها كتابُ الله وسُنَّةَ نبيِّـــه ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

ولقد سُئِلَت السيدةُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، فقالت: « كان خُلُقُه القرآن » (٢)

والقرآنُ جامعٌ لما فَرَضَهُ الله وأوجبه، رحمةً بالخَلق، وهدايةً لهم، ولا يكون قدوةً للخَلق أجمعين إلاَّ مَن كان ذا خُلُقٍ عظيم. وتلك شهادةُ ربِّ العالمين لِمَن أرسله اللهُ

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) أحمد: باقي مسند الأنصار، حديث عائشة رضي الله عنها، رقم ٢٣٤٦٠.

رحمةً للعالمين ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (١)

ولم أرَ شيئاً أحاط بجوانبِ النفسِ، ودخل إلى مكونِها، وأمدَّها بفيضٍ من الطُّهر، مثل ما فَعَلَ الإسلامُ.

لم يُقدِّم للناسِ منهاجاً نظرياً جافّاً، وإنما قَدَّم زُخْراً فطرياً مُنطلقاً يتفاعل مع النفس، كمـــا يتفاعلُ مَدُّ الشمس مع حياةِ الزَّرع والقمر في فطرةٍ سمحة ليِّنة هادية.

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (٢)

والدَّاعي إلى الله – بِحُسْنِ خُلُقه – أشد تأثيراً في حياة الناس من الدَّاعي إليه بقوله. والشجرةُ الطيِّبةُ الناميةُ غير المصنوعة المصوَّرة. تلك يستظلُّ الناسُ بظلِّه، ويأكلونَ من ثَمرِها، وهذه لا يجدون لها ظِلاًّ، ولا ينالون منها ثَمَراً.

« البرُّ حُسْنُ الخُلُق » والبرُّ يسعدُ به الناسُ ويتراحمون فيما بينهم. ولذا كان جزاء صاحبِ الخُلُق عظيماً، ومكانته عالية.

روى أبو داودُ بإسناد صحيحٍ، عن أبي أمامه الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « أَنَا زَعِيمٌ (٣) بِبَيْتٍ (٤) فِي رَبَضِ (٥) الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ (٦) وَإِنْ كَانَ

(١) القلم: ٤.
(٢) الروم: من الآية ٣٠.
(٣) أيْ ضَامِن وكَفِيل.
(٤) قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْبَيْت هَا هُنَا: الْقَصْر، يُقَال: هَذَا بَيْت فُلَان، أَيْ: قَصْره.
(٥) رَبَض الْجَنَّة: أَيْ مَا حَوْلهَا خَارِجًا عَنْهَا، تَشْبِيهًا بِالأَبْنِيَةِ الَّتِي تَكُون حَوْل الْمُدُن وَتَحْت الْقِلَاع.
(٦) الْمِرَاء: أَيْ الْجِدَال، كَسْرًا لِنَفْسِهِ؛ كَيْلَا يَرْفَع نَفْسه عَلَى خَصْمه بِظُهُورِ فَضْله.

مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ » (١)

وروى الترمذيُّ عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا. وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ » (٢)

وروى الترمذيُّ، عن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسير حُسْنِ الخُلُق، قال: « هو طلاقةُ الوجه، وبذْل المعروف، وكَفُّ الأذى » (٣)

أخي المسلم: إنَّ الأُمَّةَ التي يسودُ بين أبنائها حُسْنُ الخُلق تَظَلُّ - بفضل الله - رفيعةَ الشأن، طيِّبةَ الذِّكر، ينعم أبناؤها بالمودَّة والتراحم، والطمأنينة والأمن.

والأُمَّةُ التي تُفرِّطُ في ذلك ينالُها من الشقاء والبغضاء ما يجعلها عُرضةً للذُّلِّ والهوان، والفشل وذَهاب الرِّيح. ومن المعلوم أن الأخلاقَ - وهي ترتبطُ بالإيمان بالله ومراقبته وخشيته - تأخُذُ طَابَع الثبات والشمول؛ فالصدق صِدْقٌ مع الناس جميعاً، والعدلُ عدلٌ مع العدو والصديق، والقريب والبعيد.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٤)

---

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب في حُسن الخلق، رقم ٤١٦٧.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم ١٩٤١، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم ١٩٢٨.

(٤) المائدة: من الآية ٨.

وقد ارتبطت الأخلاق - في كثيرٍ من المواطن - بتقوى الله ﷻ، وجاءت بياناً لصفات المتَّقين ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾ (١)

أخي المسلم: « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ » (٢)، فاحْرِص - دائماً - على هذه المكانة العالية الرفيعة؛ فإن « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » (٣)، « ولا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا » (٤)، واقتد بنبيِّك ﷺ وقد قال عنه عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: « لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا، وَلا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا » (٥)

فاللهم اهْدِنا لأَحْسَنِ الأَخْلاق؛ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنَّا سَيِّئَهَا؛ لا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ. اللَّهُمَّ إنا نعوذُ بكَ من منكراتِ الأخلاق، والأعمال، والأهواء.

---

(١) آل عمران: ١٣٣- ١٣٦.

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في حُسن الخُلق، رقم ٤١٦٥.

(٣) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١٠٨٢، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٤) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم ٤٧٦٠.

(٥) البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ رقم ٣٢٩٥.

برٌّ يجبُ أنْ يسُود

أخي المسلم:

إن طَرائقَ الخير كثيرةٌ ومتعدِّدةٌ، وهي مُتَاحةٌ للناس جميعاً، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ (١)

وقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ ﴾ (٢)

وفي الحديث المُتَّفق عليه، عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالَ: قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ: يُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ » (٣)

أرأيتَ كيف اتَّسعتْ طرائقُ الخير، وتعدَّدت أبوابُه. إنَّ كُلَّ إنسانٍ في استطاعته أن يفعلَ برًّا، أو يُقدِّمَ خيراً. وما يُقدِّمه من خيرٍ فلنفسه، وما يُمسكُ عنه من شَرٍّ يكون خيراً في صالح عمله؛ ففي الحديث المُتَّفق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « كُلُّ سُلامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ قَالَ: تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ

---

(١) البقرة: من الآية ١٩٧.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٦٧٦.

obeikandl.com

صَدَقَةٌ. قَالَ: وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » (١)

رحمةٌ واسعةٌ ينالُها الناسُ بتراحُمهم. والرَّاحمون يرحمهم الرحمن.

وبِرٌّ يجبُ أن يسودَ؛ ليتراحمَ الناسُ فيما بينهم، ويجبُ أن تسودَ الكلمةُ الطيبة بين الناس؛ لينعموا بحُسن الصِّلة والمودَّة، ويتعاونوا فيما بينهم على البِرِّ والتقوى؛ ليكون الله في عَوْنهم.

قال ﷺ: « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » (٢)

وما رأيتُ شيئاً أبَرَّ بصاحبه كعملِ الخير، وما رأيتُ شيئاً أساءَ لصاحبه كعمل السيئات. والله ﷻ يُحذرنا من السيئات، ويدعونا لعمل الخيرات. وما نعمله من عملٍ يسبقنا إلى دار الجزاء ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (٤)

---

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٦٧٧.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٤٨٦٧.

(٣) آل عمران: ٣٠.

(٤) الكهف: من الآية ٤٩.

﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

إنَّ الساعةَ ستأتي ويتمنى الإنسانُ فيها أن يرجعَ؛ ليُضاعِفَ من أعمال الخير؛ لِمَا يرى من حُسْنِ العاقبة.

وكَم من عملٍ – قد تراه يسيراً أو صغيراً – أنقذَ صاحبَه، ورفعَ مكانَتَه.

والرسول ﷺ يُخبرنا، وهو الصادقُ الأمين: « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ (٢) فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ » (٣)

وفي رواية: « مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ؛ لا يُؤْذِيهِمْ. فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ » (٤)، وفي رواية: « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ » (٥)

فَعَلَى الإنسانِ ألاَّ يحقر شيئاً من عمل البرِّ؛ فقد جاء في الحديث المُتَّفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ (٦) شَاةٍ » (١) والمعنى: لا تمتنع جارةٌ من الصدقة أو الهدية لجارتها؛ لاستقلالها أو

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) أيْ يتنَعَم فِي الْجَنَّة بِمَلاذها؛ بِسَبَب قَطْعه الشَّجَرَة.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، رقم ٤٧٤٥.

(٤) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، رقم ٤٧٤٤.

(٥) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى بـه، رقم ٢٢٩٢.

(٦) قَالَ أَهْل اللُّغَة: هُوَ بِكَسْرِ الْفَاء والسِّين وهُوَ الظِّلْف , قَالُوا: وَأَصْله فِي الإِبِل , وهُوَ فِيهَا مِثْل الْقَدَم فِي الإِنْسَان.

احتقارها ما عندها، بل تجودُ بما يتيسَّرَ وإنْ كان قليلاً؛ فالقليل الذي يُقدَّم ابتغاءَ وجه الله، ينمو ويربُو عند الله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ ﴾ (٢)

وقد سمعنا ما جاء في صحيح مسلم: « لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » (٣)

فهل يَعي المسلمون أخلاقَ دينهم وآدابَه، فيسود البرُّ بينهم، وتنمو الفضائلُ التي تُحقّقُ لهم في حياتهم نَصْراً وعِزّاً،وفي آخرتهم رضاً وفَوْزاً.

اللهُمَّ اهْدِنا لأحسنِ الأخلاق، لا يهدي لأحْسَنِها إلاَّ أنت، ووفّقنا - في جميع أمورنا - لِمَا يُرضيك عنَّا.

* * *

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها، رقم ٥٥٥٨.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) سبق تخريجه.

صنائع المعروف

أخي المسلم:

عليك بعمل الخير؛ فإنه باقٍ لك. واحذَر الشَّرَّ؛ فإنه حِمْلٌ عليك.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (١)

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (٢)

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠ ﴾ (٣)

عليك بالمعروف؛ فإن « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » (٤)، و « لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » (٥)

هكذا علَّمنا النبيُّ ﷺ، ودعانا إلى عمل الخير، والمبادرة إليه، والتنافس عليه.

روى مسلمٌ من حديث سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.
(٢) فاطر: من الآية ١٨.
(٣) آل عمران: ٣٠.
(٤) المعجم الكبير للطبراني: ٨/٢٦١، رقم ٨٠١٤.
(٥) سبق تخريجه.

فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنْ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » (١)

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « قلتُ: يا رَسُولَ الله، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ. قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: أَعْلاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا (٢)، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قَالَ: تُعِينُ ضَائِعًا (٣) أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ (٤). قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قَالَ: تَدَعُ النَّاسَ مِنْ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ » (٥)

هكذا يُعلّمنا رسولُ الله ﷺ: أن نفعلَ الخير، وأن نُبادِرَ إليه، وأن نكُفَّ عن الشرِّ، ونحذرَ منه.

ولا يتوقَّفُ فِعْلُ الخيرِ على غنىً أو فقرٍ، أو قوَّةٍ أو ضعفٍ؛ فأبوابُ الخير كثيرة مُفتَّحَة للخَلق جميعاً، غنيِّهم وفقيرِهم، وقويِّهم وضعيفِهم.

روى مسلم عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ (٦) بِالأُجُورِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أيْ ما اغتباطهمْ بِها أشدّ؛ فإنّ عتْق مِثْل ذلك ما يقعْ غالبًا إلاّ خالصًا، وهو كقوْله تعالى: (لَنْ تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تُحبُّون)

(٣) الصّواب بِالْمُهْملة والنّون (صانعاً) كما قالهُ الزُّهْريُّ. وقال الدّارقُطْنيُّ: وهُو الصّواب لمُقابلته بالأخْرق، وهُو الّذي ليْس بصانعٍ، ولا يُحْسنُ الْعمل.

(٤) قال أهْل اللُّغة: رجُل أخْرق، لا صنْعة لهُ. والْجمْع خُرْق.

(٥) البخاري: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل ؟ رقم ٢٣٣٤.

(٦) الدُّثُور: هُوَ الْمال الْكثير.

obeikandl.com

إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ [1] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا » [2]

أخي المسلم: أرأيتَ كيف تتسع أبوابُ الخير لكُلِّ عازمٍ عليه، ولا تقتصر على جانبٍ مُعَيَّنٍ قد يعجزُ بعضُ الخَلق عنه. لا يقتصر على إنفاق مالٍ قد لا يجده فقيرٌ، فيشكو من حرمانه من الأجر، ولا يتوقَّفُ على قوَّةٍ قد يملكها هذا دون ذاك، فيشكو ضعيفٌ من حرمانه من الأجر، وينطوي على ألمٍ وحسرة.

إن ناساً يُحبون عملَ الخير قد تسبق بهم نيَّاتُهم وإن حبستهم أعذارُهم.

روى مسلمٌ عن أبي عبد الله، جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ » [3]

وفي رواية البخاري، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلا وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ. حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » [4]

وروى البخاري، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١) البُضْع: يُطْلَق على الْجماع، ويُطْلَق على الْفَرْج نفْسه، وكِلاهُمَا تَصِحّ إرادته هُنَا.

(٢) مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٦٧٤.

(٣) مسلم: كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم ٣٥٣٤.

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو، رقم ٢٦٢٧.

« إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا » (١)

أخي المسلم:

بادر بالأعمال الصالحة، واسْتَبِق الخيرَ، واصنع المعروفَ؛ فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء. اصنع المعروفَ مع مَن عرفت ومَن لم تعرف، ولا تحقرن من المعروف شيئاً. وقدِّم الخيرَ؛ فإنه مُدَّخَرٌ لك.

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢)

* * *

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم ٢٧٧٤.
(٢) المزمل: من الآية ٢٠.

obeikandl.com

الوصية بالجار

أخي المسلم:

من خصال الإيمانِ أن يُكْرِمَ المرءُ جارَه، وأن يكون صادقاً مُخلصاً في الإحسان إليه.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

ومن أنواع الإحسان إليه: مواساتُه عند الحاجة « إِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَّعْتَهُ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنْ أَعْوَزَ سَتَرْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ » (٢)

وفي الحديث المُتَّفَق عليه، عن ابن عمر وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالا: قال رسول الله ﷺ: « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » (٣)، وفي مسند أحمد، عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: « لا يَشْبَعُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ » (٤)، وعن عُقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: « أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ » (٥)

وفي "الأدب المفرد" عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عن النبي ﷺ قال: « كم من جارٍ

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ٤١٩/١٩، رقم ١٠١٤.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب الوصية بالجار، رقم ٥٥٥٦.

(٤) أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة، أول مسند عمر بن الخطاب ﷺ رقم ٣٦٧.

(٥) أحمد: مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ رقم ١٦٧٣٢.

متعلّقٍ بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رَبِّ هذا أغلق بابَه دوني؛ يمنع معروفه » (١)

ولذا جاء أمرُه ﷺ بتعهد الجار، والإحسان إليه، وبرِّه في جميع الأحوال.

ففي صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَــةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ » (٢)

وفي رواية له عن أبي ذَرٍّ، قال: « إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ » (٣)

أخي المسلم: رُبَّما امتُحِنْتَ بجارٍ غير مدرك لحقِّك، أو سيءٍ إليك، فكُن أنتَ صبوراً على أذاه، مُحسناً إليه ولو أساء إليك. وانزع الشَّرَّ من صدره بِنَــزْعِهِ من صدرِك؛ فإن العملَ هنا والجزاءَ هناك. ولا بُدَّ أن يُفرِّقَ الموتُ بينكما.

عن عراك بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إن فلاناً جاري يُؤذيني. فقال: كُفَّ أذاك عنه، واصبر على أذاه. فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى جاءَ، فقال: يا رسول الله، إنَّ فلاناً جاري الذي كان يؤذيني قد مات. فقال ﷺ: كَفَى بالدهرِ واعِظاً، وكفى بالموت مُفَرِّقاً » (٤)

قال الحسن: ليس حُسْنُ الجوار كَفَّ الأذى، ولكن حُسْنُ الجوار احتمال الأذى.

ويُروى من حديث أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « ثَلاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ » وعدّ منهم: « الرَّجُلُ

---

(١) الأدب المفرد: ٥٢/١، رقم ١١١، وقال الألباني: حسن لغيره.
(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٤٧٥٨.
(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٤٧٥٩.
(٤) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: ٨٥٤/٢، رقم ٩٠٨.

يَكُونُ لَهُ الْجَارُ يُؤْذِيهِ جِوَارُهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ » (١)

وفي الحديث المُتَّفَق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: « وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ » (٢)،وفي رواية لمسلمٍ: « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » (٣) والبوائق هي: الغوائل والشرور.

أخي المسلم: إن الإيمانَ قوَّةٌ دافعةٌ ومانعةٌ. دافعةٌ إلى الخيرِ، مانعةٌ من الشَّرِّ. به تصلح نيَّات الناس، وتُرفع أعمالُهم. وكُلُّ وُدٍّ على غيرِ تُقَى وإيمان لا يلبث أن يزول، وكُلُّ عملٍ يقومُ على تقوى الله وخشيته مُمْتَدٌّ يتجاوز حدودَ الحياة إلى ما وراءها من جزاء الآخرة ونعيمها. لذا نرى رسولَ الله ﷺ يربط الحثَّ على إكرام الجار، والنهي عن إيذائه، يربطه بالإيمـــان « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ **فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ** » (٤)، « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ **فَلا يُؤْذِ جَارَهُ** » (٥)

حَثٌّ على فِعْلِ الخير يدفعه الإيمانُ، ونهيٌ عن أذى الجار يمنعه الإيمانُ. ومع صدق الإيمان يصلح أمرُ الإنسان، فيُكرم الأخُ أخاه، ويسعد بجواره. وفي غيبته يتسلط الهوى الكذوب – بظلمه وظلامه – فتفسد الروابط، ويُسَاء الجوار، وتمتد الشرور والمفاسد، ولا يأمن الجارُ شرَّ جاره.

---

(١) أحمد: مسند الأنصار، باب حديث أبي ذر الغفاري ﷺ رقم ٢٠٣٧٧.
(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم ٥٥٥٧.
(٣) مسلم: كتاب الإيمان، بيان تحريم إيذاء الجار، رقم ٦٦.
(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم ٥٥٦٠.
(٥) البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم ٥٥٥٩.

والمسلمُ الصادق يُبرهن بحُسن معاملته على حُسن إسلامه، ويُصدِّق عملُه الصالح ما وَقَرَ في قلبه. والجوارُ مرآةٌ صادقةٌ يُرى فيها الجارُ على حقيقته، وتُعرَف أعماله.

وعَوْنُك لجارك - في صدق النصح له، وتبصرته بما يُصلح دينه ودُنياه - جديرٌ أن يُحقِّقَ لك عَوْنَ الله « وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » (١)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ » (٢)

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، رقم ١٨٦٧، وقَالَ: هذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

دلالة النعمة في حياة الناس

أخي المسلم:

من نِعَمِ الله على عباده: أنْ جعل تبصرتهم فيما يرتبط بمعايشهم، ويتَّصل بحياتهم. وقد تآخت آياتُ الله في الأنفس والآفاق مع آيات الله المنـزَّلة على نبيِّه ﷺ في هداية الإنسان وتبصرته. فلا حُجَّةَ لغافلٍ في غفلته.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

حركةُ الحياة أمامَ نَظَرِ الإنسان تمضي في اتِّساقٍ فطريٍّ؛ لمتاع الإنسان وتذكرته.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

والإنسانُ إذا أخذ من الحياةِ جانبَ المنفعة والمتاعِ، وأهمل جانبَ التبصرة

---

(١) النور: ٤٣.
(٢) الفرقان: ٦٢.
(٣) ق: ٦ – ٨.

والذكرى، فقد رضيَ لنفسه ألاَّ تتجاوز - بما أُعطَى - مرتبةَ الأنعام ! وهي تشاركه في المنفعة والمتاع ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

إنَّ الإنسان يُخاطَبُ بنعَمِ الله وله من أسباب المعرفة ما يُحقِّقُ الجنةَ ويُذهبُ الغفلة، فإذا أخذ من الحياة متاعَها وترك دلالتها، إذا أخذ زينتَها وأهمل قيمتها، فلم ير في نِعَم الله من حوله إلاَّ ما تراه الأنعامُ لغرائزها وشهواتها، فإن مصيراً شائناً ينتظره، ولن ينفعه في غَدِه مالٌ ولا بنون.

لا بُدَّ أن تقومَ العبرةُ مع المنفعة، وأن تتحقَّق الخشيةُ مع المتاع؛ ليتميَّز الإنسانُ، وتتحدَّد قيمتُه وهو يصل بالمقدِّمات إلى النتائج.

إنَّ نِعَمَ الله سيقت إليه لتبصرته وتذكرته.. فما أكثرها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢) ففي النعمة للإنسان تبصرةٌ وتذكرةٌ، وله وللأنعام متاعٌ.

إن الأنعامَ لا تُخاطَبُ باللغة لتنظر وتعتبر، وإنما يُخاطَبُ الإنسان ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣)

---

(١) محمد: من الآية ١٢.
(٢) النحل: ١٨.
(٣) عبس: ٢٤- ٣٢.

وقد زُوِّدَ الإنسانُ بأسباب النظرِ والتأمل، فإذا أهملها وعطَّلها، أو استعملها في غير ما خُلِقَت له، فقد رضي ألاَّ يتجاوز حدَّ المشاركة للأنعام، وكان - بذلك - أضلَّ منها.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

ومن خوطِبَ بالنِّعَمِ لا بُدَّ أن يُحاسَبَ. ومَن حوسِبَ لا بُدَّ أن يجد الجزاءَ العادل ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) النازعات: ٢٧- ٤١.

(٣) عبس: ٣٤ - ٣٧.

ونحنُ مُخاطَبون بنعَمِ الله في أنفسنا، وفي الكون من حولنا، ومخاطبون - كذلك - بآياته المنـــزَّلة على نبيِّه ﷺ، والمحفوظة بحِفْظِ الله؛ رحمةً بعباده ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (١)

وتتَّسقُ الآيات كُلُّها - في إعجازٍ فطريٍّ - وهي تُخاطِبُ الإنسانَ خطاباً لا اختلافَ فيه ولا تناقُض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ (٢)

فهل يعي الإنسانُ حقيقتَه، ويحفظ - بصدقِ الاستجابة - حياته وقيمته ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ ﴾ (٣)

أخي المسلم: ومن نِعَمِ الله عليك: ما فَرَضَ الله عليك، فأنت بها مُخاطَب، فلا بُدَّ أن تُقدِّر معنى الخطاب من ربِّك، وأن ترى أثَرَ ذلك في حياتك وفي الناس من حولك.

إنها نعمةٌ سِيقت إليك، وآيةٌ من آيات ربِّك تتَّسق مع جميع آياته في مخاطبتك، فتدبَّر آياتِ ربِّك، ولا تكُن من الغافلين.

---

(١) الحجر: ٩.
(٢) النساء: من الآية ٨٢.
(٣) الأنفال: ٢٠ - ٢٤.

اذكروا نعمةَ الله عليكم

أخي المسلم:

يُذَكِّرُنَا القرآنُ - ونحن نتلُوه أو نستمعُ إليه - بِنِعَمِهِ تعالى علينا ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١)

يُذَكِّرُنَا بنعمته سبحانه في الهداية إلى الإسلام، وما أنعمَ به من القرآن العظيم، والسُّنَّةِ المطهَّرة. يُذَكِّرُنَا بنعمة الله فيما شَرَعَ من أحكامٍ، وما حدَّ من حدودٍ، وما هَدَى إليه من سبيلٍ ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾ (٢)

يُذَكِّرُنَا بنعمته في تأليفِ القلوب بعد عداوتها، وإنقاذها من النار وقد كُنَّا على شَفَا حُفْرَةٍ منها ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٣)

وتأليفُ القلوبِ نعمةٌ لا يَقْدِرُ عليها البشرُ ولو أنفقوا ما في الأرضِ جميعاً،

---

(١) النحل: ١١٨.
(٢) البقرة: من الآية ٢٣١.
(٣) آل عمران: ١٠٣.

ولكن الله - وهو القادرُ على كُلِّ شيءٍ - يُؤلِّفُ بين قلوبِ عبادِه مع صِدق الإيمان، والاستقامة على دِينه ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣ ﴾ (١)

يُذَكِّرُنَا بنعمته في رَفْعِ الحَرَجِ فيما شرع، وتطهيرِ النفوس ظاهراً وباطناً بالعقيدة، وبما أوجب من فرائض، وما شَرَعَ من أحكام.

يُذَكِّرُنَا بنعمةِ الإسلام، وما صِرْنَا إليه من نعمة العِزَّةِ، واجتماع الكلمة حين استجبنا لله وللرسول، وقلنا: سَمِعْنَا وأطعنا. ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ﴾ (٢)

يُذَكِّرُنَا بنعمته علينا في كَفِّ أيدي الأعداء عنَّا وهم يريدون البطشَ بنا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ﴾ (٣)

وقد يظُنُّ ظانٌّ أن التذكيرَ بنعمة الله يَخُصُّ مَن نزل فيهم القرآنُ، أو وقعت فيهم حوادثُ كانت سبباً في نزول القرآن. والحقُّ أن التذكيرَ بنعمة الله عامٌ شاملٌ ولو كان السبب خاصاً؛ ذلك أن نعمةَ الله على رسول الله ﷺ وصحابته الكرام نعمةٌ لنا

(١) الأنفال: ٦٢، ٦٣.
(٢) المائدة: ٧.
(٣) المائدة: ١١.

يمتدُّ أثرُها إلينا ولِمَن جاء بعدنا، وإلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها.

فنعمة النصرِ للمؤمنين في (بَدْر) نُخاطَبُ بها كما خُوطِبَ أسلافُنا من قبل؛ إذ لولا نصرُ الله وتأييده لهذه الصفوة المؤمنة ما انتقل الإسلامُ إلينا، ولا استقامَ للناس أن يعبدوا ربَّهم على بصيرة. وهذا كان دعاءُ النبي ﷺ في بدرٍ: « اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ [1] مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ » [2]

فكُلُّ نعمة من الله على السابقين - من المؤمنين الذين نصروا الإسلام، وجاهدوا في سبيل الله - هي نعمةٌ من الله علينا، نُطَالَبُ بشُكرها، ونستمسك بأسبابها؛ لنَنْعم بما نَعِمَ به أسلافُنا من رضى الله وتأييده ونصره.

والله - جلَّ وعلا - يُذَكِّرُنا بكثيرٍ من النِّعَم في آياتٍ تُتْلَى؛ لتكون لنا هداية وتبصرة ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [3]

ومن الذِّكرى نستطيع أن نُحسنَ الاستجابة لله وللرسول فيما نُدْعَى إليه، مقتدين بأسلافنا، متَّبعين لهم غير مبتدعين ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [4]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [5]

---

(١) العصابة: الجماعة من الناس.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم ٣٣٠٩.

(٣) الذاريات: ٥٥.

(٤) آل عمران: ٣١.

(٥) الأنفال: ٢٤.

يُذَكِّرُنا القرآنُ بنعمة الله علينا في كثيرٍ من آياته؛ لنحفظ هذه النِّعَم بشُكر الله، والقيامِ بما أوجب علينا. ولكُلِّ نعمةٍ شكرُها، ولكُلِّ عملٍ جزاؤه.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (١)

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠ ﴾ (٢)

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾ (٣)

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩ ﴾ (٤)

* * *

(١) الزلزلة: ٧، ٨.
(٢) النمل: من الآية ٤٠.
(٣) الزمر: ٧.
(٤) النمل: من الآية ١٩.

الإنسان بين الرخاء والشدة

أخي المسلم:

في العمر المحدود للإنسان يكونُ الابتلاءُ بما يُقدِّره اللهُ من عُسْرٍ أو يُسْرٍ، أو شِدَّةٍ أو رَخاءٍ، أو سَرَّاء أو ضرَّاء.

وعلى الإنسانِ أن يُحسِنَ الإجابة، وهو مُحْسِنٌ - بفضل الله - إنْ هو أدركَ العاقبةَ، وآمن بالآخرةِ، وسعى لها سَعْيَها.

ولقد بيَّن اللهُ ﷻ - في كتابة وعلى لسانِ رسوله - ما يؤدِّي إليه الابتلاءُ والاختبارُ من تمييزٍ لصفوفِ الناس ومعادنهم، ومعرفةٍ لجهادِهم وبلائِهم.

ولو تُرِكَ الناسُ بغير بلاءٍ وامتحانٍ لَمَا تحقَّقت حكمةُ الخَلق.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ (١)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

ومَن أرادَ فوزاً في امتحانٍ فعليه أن يعرفَ الإجابةَ الصحيحة فيما يعرضُ له، أو يقع فيه. ولكُلِّ امتحانٍ إجابتُه، ولكُلِّ إجابةٍ جزاؤُها.

وكُلُّ ذلك يجده الإنسانُ أمامَه، لا يغيبُ منه شيء.

---

(١) آل عمران: من الآية ١٧٩.

(٢) محمد: ٣١.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ (١)، ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩ ﴾ (٢)

والإجابةُ الصحيحةُ مقترنةٌ بالمعرفة الصحيحة لحكمة الخَلق وما قدَّر الله على عباده، مقترنةٌ بالمعرفة الصحيحة للعاجلة، وما تؤدِّي إليه للآخرة، وما يجب لها من سعي، فلا يحب العاجلةَ ويَذَر الآخرة، وهو قادمٌ إليها ومُقيمٌ فيها.

الإجابةُ الصحيحة تقتضي أن يكون الإنسانُ صادقاً مع نفسه، فلا يخدعها أو تخدعه بعاجلٍ تذهب لذَّته وتبقى تَبِعَتُه.

إن الاعتدالَ في مواجهة أعراض الحياة وأحداثها المتجددة يقتضي أن يؤمنَ الإنسانُ بما قدَّره الله، فلا يقع صريعَ يأسٍ في الضَّراء، أو صريعَ بَطَرٍ مع السَّراء. والله لا يحبُّ هذا ولا ذاك، بل يُحبُّ الصبرَ مع البلاء، والشُّكْرَ مع النعماء. يُحِبُّ من عبده أن يذكره في كُلِّ حالٍ ولا ينساه، وأن يشكره ولا يكفُره ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾ (٣)

الإجابةُ الصحيحة - في الشدَّة والرخاء، والعُسر واليُسر - تقتضي إيماناً حقّاً، واستقامةً في اتباعٍ لا ابتداعَ فيه. عندئذٍ يجد العبدُ توفيقه من الله، ويجد حِفْظَه وعَوْنه؛ فمَن حَفِظَ اللهَ حَفِظَهُ، ومن تعرَّف إليه في الرَّخاء وجَدَهُ في الشدَّة.

---

(١) المجادلة: ٦.
(٢) الكهف: ٤٩.
(٣) الزمر: ٧.

وبالإجابة الصحيحة عمَّا امتُحِنَ الإنسانُ به يكون كُلُّ شيءٍ خيراً بالنسبة له، وهذا ما قاله الرسولُ ﷺ فيما رواه مسلمٌ في صحيحه: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ - وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ - إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١)

الإنسانُ بين الشِّدَّة والرخاء عليه أن يسلك الطريقَ الذي يجعل الشدةَ تمضي إلى فَرَجٍ ويُسْرٍ، وتجعل الرخاءَ حَسن العاقبة بشُكْرِ الله وإخضاعِ كُلِّ شيءٍ لطاعته ومرضاته. والإنسان - في جميع الحالات - عليه أن يُحاسِبَ نفسَهُ، وأن يتثبَّتَ من نيَّته وعمله، وأن يحفظ ربَّه في كُلِّ شأنٍ من شئونه، وأن يتقيَه ويخشاه.

بذا ينتهي الأجلُ المُقَدَّرُ للإنسان في الدنيا وقد ظَفَرَ بإيمانه وفاز.

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٢)

روى الترمذيُّ، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: « كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » (٣)

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) آل عمران: من الآية ١٨٥.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٠، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي رواية غير الترمذي: « احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ. وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ - كُلَّهُمْ جَمِيعًا - أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » (١)

أرأيت - أخي المسلم - كيف كان رسولُ الله ﷺ يُعلِّمُ الغلامَ الصغيرَ أُسُسَ العقيدة؛ لتُرَى في عملٍ وسلوكٍ. وبهذا يتحقَّقُ وجود الإنسان الصحيح الذي تعتمد عليه أُمَّتُنا الإسلامية - بعد الله ﷻ - لأداءِ رسالتها، وتحقيقِ عزَّتها. الإنسان الذي يُواجِهُ سرَّاء الحياة وضرَّاءها بإيمانٍ ومعرفةٍ واستقامةٍ واعتدال.

* * *

(١) أحمد: ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، رقم ٢٦٦٦.

تعرَّف على الله في الرَّخاء

أخي المسلم:

تَمُرُّ على الإنسانِ أحوالٌ متباينةٌ، من سَرَّاءَ وضرَّاء، وشِدَّةٍ ورخاء. وهو مُمْتَحَنٌ بتقلُّب الأحوال؛ إذْ بها يُعرَفُ أمرُه. أيذكرُ ربَّه ؟ أم ينساه ؟ أيشكرُ ؟ أم يكفُر ؟

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣)

ومن الناس ناسٌ لا يعرفونَ الله إلاَّ في الشدة، ولا يلجأون إليه إلاَّ إذا مسَّهم الضُرُّ، فإذا انكشف عنهم الضُرُّ، وذهب الضيقُ والحَرج، نسوا ربَّهم، وربما نسوا النجاةَ لأنفسهم، وأسندوها إلى علمهم وفطنتهم، وبدَّلوا نعمةَ الله كفراً، وزُيِّنت لهم

(١) لقمان: من الآية ١٢.
(٢) النمل: ٤٠.
(٣) الأنعام: ٤٢- ٤٥.

أعمالهم فكانوا من الأخسرين.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

وكثيراً ما يُنبِّهُ القرآنُ الكريم على هذا الصنف الكافرِ الجاحد من الناس؛ تحذيراً من الوقوع فيما وقعوا فيه، وتنبيهاً إلى ذِكر الله وشُكره في جميع الأحوال.

ويُبصِرُ الإنسانُ - وهو يقرأُ كتابَ الله - حالَ أولئك وقد ركبوا الفُلكَ وهي تجري بهم بريحٍ طيبةٍ، وفرحوا بها. إذ بالأحوال تتبدَّل: من ريحٍ طيبةٍ إلى ريحٍ عاصفٍ، ومن جريان الفلك إلى اضطرابها، ومن فرحٍ وسرورٍ إلى فَزَعٍ واضطراب. وقد جاءهم الموجُ من كُلِّ مكان. عندئذٍ أخذوا يستغيثون ويلجأون إلى الله بعد أن تخلَّى عنهم كُلُّ ما يطمعون في معاونته، ولم يجدوا أمامهم إلاَّ إخلاصَ الدعاء لله وحده ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣)

فماذا كان موقفُهم عندما أُمرت الريحُ فهَدَأَتْ، واطمأن الموجُ، وسكنت

---

(١) يونس: ١٢.

(٢) الزمر: ٨.

(٣) يونس: من الآية ٢٢.

النفوس، ووصلت الفلكُ آمنةً إلى شاطئ النجاة، ولمست أقدامُهم اليابسةَ بعد أن كانوا في خِضَمِّ الماء يُحيط بهم الهلاكُ من كل جانب ؟

كان ما وضَّحه القرآنُ وبيَّنَهُ، من إسراعهم في البغي والفساد.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

لكنَّ المؤمنَ وَفِيٌّ. في جميع الأحوال يعرفُ فَضْلَ ربِّه، يذكره في الرخاء، فيؤدِّي ما فرضه عليه، ويعرفه في صحته وفي شبابه، وفي سَعته وأَمْنه، بالتقوى والأعمال الصالحة يذكره دائماً ولا ينساه.

وهذا الذكر في الرخاء لـــه آثارُه ونتائجه في الشدائد والمُلمَّات.

لقد كان يونسُ عليه السلام ذاكراً لربِّه، مُسبِّحاً بحمده، فلما جاءت ساعةُ البلاء استجاب الله دعاءَه، وقال فيها عن حاله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣)

أخي المسلم: يُعلِّمنا رسولُ الله ﷺ أن نحفظَ الله في كُلِّ أمرٍ من أمورنا، بأن

---

(١) يونس: ٢٣

(٢) الصافات: ١٤٣، ١٤٤.

(٣) الأنبياء: ٨٨.

نُحقق ما يُرضيه، ونتجنَّب ما لا يُرضيه. ومِن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله ما فَرَضَهُ علينا من فرائض، وأن نحفظَ أسماعَنا وأبصارَنا وألسنتَنا عن المحرَّمات، وأن نحفظ قلوبَنا من الإصرار على الإثم، وما نفعله من خطأ أو خطيئة.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

وإذا حَفِظَ الإنسانُ حدودَ الله، وراقبه في كُلِّ عملٍ، حَفِظَهُ الله في دُنياه وفي آخرته، ومَن حَفِظَ الله في صباه وقوَّته، حَفِظَهُ في كِبَرِه وضَعْفِه.

روى الترمذيُّ، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: « كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ » (٢)

إنَّ المؤمنَ على ذكرٍ دائم لله، في سرِّه وعَلَنه، وفي يُسْره وعُسره، فهو رابحٌ في جميع الأحوال « إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٣)

ولا أرى شيئاً يُبْقِي على الإنسان - في الأحوال المتباينة - غير صدق الإيمان بالله، وحُسن التوجه إليه. إن أقبلت النعماءُ قابلها بمنطقِ الإيمان الرشيد، وقال:

---

(١) الإسراء: من الآية ٣٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

فخضعت النعمةُ لصفات النفس الواثقة المطمئنة، فلا يُري الناسَ من النعمة إلاَّ البرَّ والتواضع، والعدل والرحمة.

ومع اليقين ترى الإنسانَ رَضِيَّ النفس في جميع الأحوال، لا يعوقُ سَعيَه يأسٌ، ولا يحبسه قنوطٌ، وما كان اليقين - دائماً - إلاَّ باعثاً على الأمل والعمل، فالأمل مع اليقين ليس شيئاً مؤقّتاً يتحوَّل إلى قنوط إذا أبطأ المطلوبُ أو تخلَّف المرغوبُ، بل هو مُستَقِرٌّ استقرارَ اليقين في القلب، يعظُم ويمتدُ ولو عَظُمَ الكربُ واشتد.

والمؤمنُ - بهذا الخُلُق الثابت - لا يعرف ربَّه في الشدة وحدها، بل يعرفه في الرخاء كما يرجوه في الشدة، ويسند الفضلَ إليه، ويطلبُ العفوَ منه. فهو دائمُ الذِّكْرِ في صوابه وخطئه، بالشكرِ والإنابة، والاستغفار والتوبة. يعرفُ ربَّه في جميع الأحوال ومَن كان كذلك حَفِظَهُ ربُّه في كُلِّ حال.

نسألُ الله تعالى أن يحفظنا بما يحفَظُ به عبادَه الصالحين.

* * *

(١) النمل: من الآية ٤٠.

من فقه المؤمن

أخي المسلم:

إنَّ أَمْرَ الإنسان عجيبٌ ! إذا مَسَّهُ ضُرٌّ دعا ربَّه، وإذا خوَّله نعمةٌ منه أسندها إلى نفسه ! ما أسرع ما ينسى ما كان يدعوا إليه، وما أكثر ما يُفتَنُ بما يُنْعَمُ به عليه.

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

كُفْرٌ وجحودٌ، وفتنةٌ بالنعمة، وغفلةٌ عن العواقب، وتَلَهٍ بالرغائب

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢)

وقد يظُنُّ الإنسانُ - وهو على هذا الحال - أنه قد رَبِحَ وأحسَنَ صُنعاً ! ولا رِبْح ولا فوزَ لِمَن كان عاقبةُ أمره خُسراً.

إن الفتنةَ بالمتاع قد تُفسِدُ على الإنسان جميعَ أمره، فلا يرى حقائق الأشياء، ولا يُقدِّرُ عواقب الأمور. إنه حريصٌ على أن يُحقِّق متعته ولذَّته فحسب. وإن اعتراه ضيقٌ أو مسَّه ضُرٌّ، طَلَبَ الخروجَ منه؛ ليعود إلى ما كان عليه، غير مُكتَرِثٍ بشُكرٍ أو وفاءٍ

---

(١) الزمر: ٨.

(٢) الزمر: ٤٩.

لِمَن عاوَنَه أو أخرجه مِمَّا كان فيه.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

أهكذا يكون الناس في حال الشدة والرخاء ؟! يعرفون الله في الشدة، وينسونه في الرخاء ! مع الشدة ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ومع النجاة والعطاء: ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾

أهكذا يكون الإنسان؟ إذا أنعم الله عليه ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ

(١) يونس: ٢١- ٢٤.

فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ؟ (١)

إن ذاك هو خُلُق أهل الكُفر والنفاق. فليحذر أهلُ الإيمان أن يَمَسَّهم طائفٌ منه؛ فإن المؤمن وفيٌّ لربِّه، شاكرٌ لنعمته، له من فِقهه بدينه، ومن تدبُّره لعاقبة أمره ما يجعله يُقدِّرُ العواقبَ، ولا يُشغل بالزينة والمتاع عن الباقيات الصالحات.

إنه يدركُ أنه مُمتَحَنٌ ومُختَبَرٌ، فيحـــرص على حُسن الإجابة في جميع الأحوال « إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » أمرُه كُلُّه خيرٌ، يعرف ربَّه في الرخاء، ويدعوه في الشدة، يعرف حقيقةَ الدنيا فلا يُفتَن بها، ولا يركن إليها، بل يسارع إلى عملِ الخير فيها؛ ليظفر بمرضات ربِّه، وينعَم بدار السلام التي يدعو الله الناس إليها، ويرغِّبهم فيها، ويُبين لهم سبيلَ الفوز بها.

إن فِقهَ المؤمن بدينه يُنيرُ له الطريق، ويدعوه - دائماً - للتي هي أقوم.

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) فصلت: ٥١.

(٢) يونس: ٢٥- ٢٧.

اعتدال النفس بين الرجاء والخوف

أخي المسلم:

إن النفسَ البشريةَ في حاجة إلى ما يُحقّقُ لها أسبابَ الاستقامةِ والاعتدال؛ حتى لا تستسلمَ لليأسِ والقنوط، أو تركَنَ - مع تقصيرٍ - إلى الإسرافِ في الرجاء.

إنها تحيا معتدلةً مستقيمةً مع الرجاء والخوف.

الرجاء الذي يفتحُ أمامَها بابَ الأمل وهي تتوكّلُ على الله، وترجو اليومَ الآخر.

والخوفُ الذي يُهذّبُ النفسَ، ويُخضعها لأوامر الشرع، وهي تنظُرُ ما قدَّمت لغدٍ، وتخشى الله.

وبذا وذاك يحيا الإنسانُ بعيداً عن اليأس المُضيِّع، والفَرَحِ المُدمِّر.

ولن يُحقّقَ لها ذلك إلاّ إيمانُها بقَدَرِ الله في السَّراءِ والضَّراء. فَبِهِ تسلم النفسُ من الأسى المُقْعِد، والفَرَحِ المُهْلِك ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

إنّ الرجاءَ يُبدِّدُ ظلماتِ اليأس، فتنشط النفسُ، وتتحرَّك معتمدةً على مَن لا يُعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

وهذا ما حقّقه الإيمانُ في أشدِّ الأوقات وأصعبِها..

---

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

وإنَّ الخوف من عقابِ الله يعصِمُ النفسَ من شرورها، ويُخلصها من هَواهَا، ويُحررها للخير ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

والإيمانُ هو الذي يُحقّق ذلك، ويَحُولُ بين النفس وبين بَطَرِها بالنعمة.

إنها تُوقِنُ أنها مُمْتَحَنَةٌ مُختَبَرَةٌ، وأن فوزَها في إجابتها، لا في النعمة المُختَبَرَة بها، فهي بالإيمانِ رابحةٌ في كُلِّ حال، رابحةٌ بصَبرها مع الضَّراء، ورابحةٌ بشُكرها مع النعماء. وهي تمضي واثقة، لا يُقعدها بلاءٌ ولا تُطغيها نعماء.

﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣)

ومع الخوف والرجاء تتخلَّصُ النفسُ من الذُّلِّ والانكسار، والبَطَر والبغي والفساد، وتبرأُ من النفاق والكذب والرياء، وهي تحذر - بخوفِها - عقابَ الله، وتنشدُ - برجائها - ثوابَه ومغفرته.

ولذا نرى آياتِ الله ﷻ تجمع بين الخوف والرجاء؛ لأن استقامةَ الإنسان لا تتمُّ

---

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) المؤمنون: ٦٠، ٦١.
(٣) النمل: من الآية ٤٠.

إلاَّ بهما، وعبوديته لا تتحقَّقُ إلاَّ معهما.

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

ونرى السُّنةَ المطهرةَ تجمعُ بينهما، وتُقَوِّمُ أمرَ الإنسان بالرجاء تارةً، وبالخوف تارةً أخرى.

روى مسلمُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » (٢)

ومن الرجاء نسمعُ حديثَ رسول الله ﷺ، فيما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ. فَقَالَ لَنَا

(١) الزمر: ٥٣ – ٥٨.

(٢) مسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم ٤٩٤٨.

النَّبِيُّ ﷺ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا: لا. وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » (١)

وفي الحديث المُتَّفَق عليه، عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى: « يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ » (٢)

أخي المسلم: بابُ الرجاء واسعٌ، وفضلُه تعالى كبيرٌ، وبه يرتفع الإنسانُ من كَبوته، ويقوم من عَثْرَته. فإذا اقترن به الخوفُ أو جاءَ في وقته، استقام أمْرُ الإنسان وحَسُنَ سَعيُه.

روى الترمذيُّ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ. وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ. أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ » (٣)

بالخوفِ والرجاء تعتدلُ النفسُ وتستقيم، وتحسن - بفضل الله - عاقبتُها.

* * *

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٥٤٠.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٥٦٠٩.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم ٢٣٧٤، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

ومن شكر فإنما يشكر لنفسه

أخي المسلم:

الإنسانُ في الحياة الدنيا مُمْتَحَنٌ. وكُلُّ امتحانٍ له إجابة. وكُلُّ إجابةٍ تكون لصاحبها نجاحاً وفلاحاً، أو خُسراناً وهلاكاً ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وقد ينسى الإنسانُ قضيةَ الامتحان والابتلاء، فيركَنُ إلى الشيء، ويطمئن إليه، ويرغب فيه دون النظرِ إلى عواقبه والظفْر بنتائجه.

وكَم من غافلٍ فوَّتَ على نفسِه زمنَ الإجابة، ومَضَت الحياةُ وهو مشغولٌ بزينتها، مَفْتُونٌ بزهرتها، أَخَذَ منها ما تأخُذُ الأنعامُ من لذَّةٍ ومتاعٍ، وأهملَ التبصرةَ والذِّكرى ! فُتِنَ بالعاجلة، واطمأنَّ إليها، وترك الآخرةَ، ولم يسع لها سَعْيَها !!

فكانت النتيجةُ كما ذَكَرَ الله ﷻ:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

والنتيجة تأتي - دائماً - مُوافقة للسعي والعمل.

---

(١) النمل: من الآية ٤٠.

(٢) هود: ١٥، ١٦.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ (٢)

إن المتدبِّرَ في حكمة الخَلْقِ وغايته يُبْصِرُ العواقبَ ولا تأسره الرغبات. يعرف ربَّه في الرخاء، ويشكره شُكْرَ معترفٍ بفضله، مؤمنٍ بآياته، مُخْلِصٍ في عبادته، مُشفقٍ من خشيته.

ومَن كان كذلك استطاع أن يَزِنَ الأشياءَ بميزانها الصحيح، وأن يكون رابحاً في الأمور كُلِّها، سرَّائها وضرَّائها؛ بحُسْنِ إجابته، بشُكره إنْ أصابته سرَّاءُ، وبصبره إن أصابته ضَرَّاءُ، فكان أمرُه كُلُّه خيراً، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن.

وغيرُ المؤمن تراه مخلصاً في الدعاء عندما يُحاطُ به، فإذا انكشفت الغُمَّةُ، وذَهَبَ الخطرُ، عاد إلى بَغْيِه وجُحوده ومَكْرِه ونسيانه.

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ ﴾ (٣)

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) يونس: ٧ - ١٠.

(٣) الزمر: ٨.

في الخطر المُحْدِقِ - وهو يطلب النجاةَ - يأخُذُ على نفسه عهداً أن يكون شاكراً لنعمة ربِّه ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1]، فإذا وصل إلى النجاةِ نَقَضَ العهدَ، وعاد إلى بَغْيِهِ وفساده ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2]، ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [3]

فليحذر أهلُ الإيمان من الغفلة والنسيان، أو الجحود والنُكران. وليَذْكروا نعمةَ الله عليهم ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [4]

فليكن الشكر دائماً لا ينقطع.. شُكرٌ بالقلب، وباللسان، وبالجوارح. شُكرٌ بالأعمال الصالحة، والبرِّ بخَلق الله.

ولكُلِّ نعمةٍ شكرها. واتِّباع الشرع هو الطريقُ للوفاء بشُكر النعمة، وهو السبيل لمرضات الله ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [5]

---

(١) يونس: من الآية ٢٢.
(٢) يونس: من الآية ٢٣.
(٣) الزمر: ٤٩.
(٤) النحل: من الآية ١٨.
(٥) إبراهيم: من الآية ٧.

أخي المسلم: إن ديننا يأمرنا - كذلك - أن نشكرَ مَن أسدى لنا معروفاً، وأن نكافئه إن استطعنا. روى أبو داود والترمذي، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ، فَلْيَجْزِ بِهِ. وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ.... » (١)

ومع الثناء والدعاء ينالُ مَن أسدى المعروفَ من الأجر والثواب ما ينال، وفي ذلك ما فيه من الحَثّ على شُكر المعروف.

روى الترمذيُّ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ، وَلا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ؛ لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ (٢)، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ (٣)، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا. مَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ، وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ » (٤)

* * *

---

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم ١٩٥٧، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أيْ تَحمّلُوا عنَّا مُؤْنَةَ الْخدْمَة في عمَارَة الدُّور والنَّخيل وغَيْرهمَا.

(٣) الْمهْنأ: مَا يَقومُ بالْكفَاية وإصْلاح الْمَعيشَة، وَقيل: مَا يأْتيك بلا تَعَب. والْمَعْنَى: أَشْرَكُونَا فِي ثِمَار نَخيلهمْ، وكَفَوْنَا مُؤْنَةَ سَقْيهَا وَإِصْلاحها، وأَعْطَوْنَا نِصْفَ ثِمَارهمْ.

(٤) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والروع، باب منه، رقم ٢٤١١، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون

أخي المسلم:

كُلُّ إنسانٍ منَّا ينشُدُ الفوزَ، ويطلُبُ النجاحَ. وقد يُخطئ مَن يخطئ في معنى الفوز، فينقضي العمرُ وهو ماضٍ في خطئه، مُوزَّعٌ في سُبُله !

كثيرٌ من الناس قد يرى الفوزَ في دُنياه دون آخرته، فلا يظفَرُ بهذه أو تلك، بل يخسَرُ دُنياه وآخرته ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [1] ويُخطئ - كذلك - مَن يظُنُّ أنَّ التعلُّقَ بالآخرة إهمالٌ للدنيا وإبطالٌ للجَدِّ والسَّعي فيها.

إنَّ التعلُّقَ بالآخرة إصلاحٌ للدنيا، وتحقيقٌ للخير فيها؛ لأنَّ السعي للآخرة لا يكون إلاَّ في الدنيا، والآخرة هي دار المتقين ﴿ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [2]

والمتقونَ هم أبَرُّ الناس بدُنيا الناس، وأشدُهم حرصاً على تحقيق الخير وإقامة العدل فيها. والفوز الذي ينشُده الإنسانُ لا يتمُّ إلاَّ في الآخرة؛ لأنَّ الفوزَ معناه الظفر بالخير مع حصول السلامة، ومَن منَّا يسلم في دُنياه وأعْرَاضُ الحياة تناله من كُلِّ جانب، من عُسرٍ ويُسرٍ، وشدَّةٍ ورخاءٍ، وصحةٍ ومرضٍ، وخوفٍ وجوعٍ، ونقصٍ من

(١) الحج: ١١.
(٢) النحل: من الآية ٣٠.

الأموال والأنفس والثمرات ؟!

مَن منَّا يسلم من شيء من ذلك ؟ وإنْ سَلِمَ من هذه الأعراض كُلِّها هل يسلم من الموت الذي كتبه الله على الناس جميعاً ؟!

وإذنْ فحصول السلامة لا يكون إلاَّ في الآخرة.

والدنيا تنعَمُ بصفات مَن يؤمنون بالآخرة، ويسعون لها سَعْيَها.

تنعَمُ بصدقهم، وصبرهم، وإخلاصهم، وحُسن مودَّتهم.

تنعَمُ بالأمن مع أولئك. ولا أَمْنَ لها مع مَن فَقَدَ هذه الصفات.

تنعَمُ بالسلام مع أولئك الذين صبروا وعلى ربِّهم يتوكلون. وهم بأعمالهم يرجون تجارةً لا تبُور.

وتشقى بأولئك الذين ينسون يوم الحساب..

فكُلّ صفةٍ يُطلب تحقيقها؛ للفوز في الآخرة، هي لدُنيانا أَمْنٌ وسلامٌ.

إن الآخرة تُطلَبُ بالإيمان والعمل الصالح. والإيمانُ أمنٌ لدُنيانا، والعمل الصالح خيرٌ لحياة الناس وبِرٌّ بينهم.

فَمَن أحبَّ حسنة الدنيا، ورَغِبَ في حياةٍ طيبة، فعليه أن يعرف السبيل إلى ذلك.

إنه الإيمان والعمل الصالح ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

إنه الإخلاص لله، والثبات عليه مهما نَالَهُ من ظلمِ الظالمين وعَبَثِ المفسدين. فإنَّ النصرَ للحق، والعاقبة للمتقين مهما تطاولَ أهلُ البغي والفساد.

---

(١) النحل: ٩٧.

إنه الصبرُ وحُسنُ التوكل. به تُنال حسنة الدنيا، ويُطلَبُ به أجر الآخرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: علينا أن نعرف سُنَن الله في خَلقه، وأن نُدرك ما تؤدِّي إليه النيَّاتُ والأعمال، فلا مجاملةَ لأحدٍ ولا محاباة ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٢)

ألاَ وإنَّ القيامَ بما أوجبه الله، والكَفَّ عمَّا نهى الله عنه، يُحقِّقُ للنفس ما ترجوه من أَمْنٍ، وذلك يستلزم صبراً على الطاعة وعن المعصية. ونحن نأخذ بالأسباب علينا أن نتوكَّلَ على الله، لا على غيره؛ فهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) العنكبوت: ٥٨، ٥٩.
(٢) النساء: ١٢٣، ١٢٤.
(٣) الأنفال: ٢، ٣.

الكلمة وخطرها

أخي المسلم:

إنَّ للكلمةِ أثراً بَالَغاً في حياةِ الناس وروابطهم.

وإنَّ كلمةَ الإنسان من عَمَلِه، وعمله محسوبٌ عليه.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

ولخُطورة الكلمة وعظيمِ أَثَرِها تنوَّعَت الوسائلُ في نَشْرِها من قديم. وفي أيدي الناس - في عصرِنا هذا - وسائلُ متعدِّدةٌ تعملُ على نَقْلِ الكلمة دونَ أن تحجبها حدودٌ أو سدود.

إنَّ الكلمة هي التي حفظتْ لنا أخبارَ الماضين ومعارفَهم، وهي التي تنقلُ أمرنا لمن يأتي بعدَنا. وإن أثرَها ليمتدُّ أبعدَ من ذلك، كما جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » (٢)

إنَّ أُمَّتَنا الإسلامية - بدافعٍ من دينها - تعرفُ قَدْرَ الكلمة، وما تُؤدِّيه من حُسْنِ الروابط وإساءتها.

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) البخاري: كتاب الرِّقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٥٩٩٧.

وهي تحفظ من كتاب ربِّها ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١)، وتعلم من هَدى نبيِّها وهو يخاطبُ معاذَ بن جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حين سأله عن عملٍ يُدخل الجنةَ، ويُباعد عن النار - فقال ﷺ فيما قال: « أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّه ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّه. فَأَخَذَ بلسَانه، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّه، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِه ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » (٢)

نعم. إن أُمَّتَنَا الإسلامية - وهي تحفظُ كتابَ ربِّها، وتَعِي هَدْيَ نبيِّها ﷺ - تجعلُ وسائلها في نَشْرِ الكلمة وإذاعتها خاضعةً - كُلَّ الخضوع - لأمرِ ربِّها، فلا تقولُ ما لا يرضى، ولا تنشرُ ما لا يُحبُّ.

إنَّ الله يحبُّ للمسلمين أن يكونوا كما قال نبيُّهم: « كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » (٣)

فلا يرضى الله عن الكلمةِ التي تقطع الروابطَ، وتُفسد المودَّة، وتُوغر الصدور. إنها فُسوقٌ لا يرضاه الراشدون، ولا يُقرُّه المؤمنون. والرسول ﷺ يقول في الحديث المُتَّفَق عليه، عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (٤)، ويقول ﷺ: « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا

---

(١) ق: ١٨.

(٢) الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم ٢٥٤١، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٥٥٥٢.

(٤) البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم ٤٦.

نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » (١)

وتحقيقا لأخوَّة المسلمين وقيامِ البرِّ بينهم، نرى الرسولَ ﷺ ينهى عن كُلِّ ما يُفسدُ مودَّتهم، أو يقطع روابطَهم، أو يُسيء إلى أُخوَّتهم:

يقول ﷺ: « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ... » (٢)

ويقول ﷺ: « لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ » (٣)

إنَّ الله يحبُّ للمسلمين أن يُنسَبُوا إلى إسلامهم، وأن يعتزُّوا بهذه النسبة، وأن يصبروا عليها، وأن لا يموتوا إلاَّ وهم مسلمون. وكل كلمةٍ تريدُ أن تُبعدهم عن هذا الأصل، أو تنسبهم إلى غيره دخيلةٌ مُنْتِنَةٌ، تبغي الخرابَ، وتنشر الفساد ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٤)

إنَّ الله قد شرَّفنا بهذا الدِّين وأعزَّنا به، وإن تاريخنا كُلَّه مَدِينٌ للخضوع لهذه العقيدة الفطرية السمحة. وهذه العقيدةُ تأبى علينا أن نعودَ إلى نَتَنِ الجاهلية وظلامها متدابرين متخاصمين، يضرب بعضُنا وجوهَ بعض.

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ٩.
(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٥٦٠٤.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) آل عمران: ٨٥.

وواجبُ الكلمة – هُنا – أن تصدُرَ عن الإيمان بالله وحده، وأن تخضع لأدب الإسلام، وأن تعملَ على إعلاء كلمةِ الله في النفوس، وجَمْعِ الصفوف.

وحين ترتبطُ كلمتُنا بديننا، وتتآخَى قلوبُنا على مرضات ربِّنا، نكون قد أَسْدَيْنَا إلى الإنسانية أكرمَ ما تحتاجُ إليه، وأقمنا للسلامِ دعائمه الحقيقية؛ فإن الإنسانية تحتاج إلى عَدْلِ المؤمن وبرِّه، والسلام يحتاجُ إلى طاعةِ الله وتحكيم شَرْعِه ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: إن للكلمةِ خطرُها في النفوس، وتأثيرها في تمزيقِ أو جَمْعِ الصفوف. فَلْنَصُنْ ألسنتَنا من فُحشِ القول، ولنُمْسِك عن كُلِّ كلامٍ لا خَيْرَ فيه، ولتكُن كلماتُنا مُعبِّرةً عن رسالتنا، داعيةً إليها في جميع المجالات.

روى البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (٢)، وروى الترمذيُّ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لا تُكْثِرُوا الْكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي » (٣)

---

(١) آل عمران: ١٠٤، ١٠٥.

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٥٩٩٤.

(٣) الترمذي: كتاب الزهد، باب منه، رقم ٢٣٣٥، وقال: هَذا حَدِيث حَسَنٌ غريبٌ لا نعْرِفُهُ إلا مِنْ حديثِ إبْراهِيم بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَاطِب.

وقال رجلٌ لسلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أوصني. قال: « لا تتكلَّم ». قال: ما يستطيع مَن عَاشَ في الناس أن لا يتكلَّم ؟ قال: « فإن تكلَّمْتَ فتكلَّم بحقٍّ أو اسكُت »

وعَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ، فَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (١)

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ (٢)

* * *

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١١/٢٢٥، وقال: لَمْ يَرْوِ هذَا الْحديثَ عَنْ نَافِعٍ إلا يحْيَى بن أَبِي كَثِيرٍ. ولا رواهُ عنْ يحْيَى إلا عُمَرُ بن راشِدٍ، ولا رواهُ عَنْ عُمَرَ إلا عِيسَى الْغُنْجَارُ، ولا عَنْ عيسَى إلا إبْراهِيمُ بن الأَشْعَثِ، تَفَرَّدَ بِهِ: عبْدَةُ بن عَبْدِ الرَّحِيمِ.
(٢) آل عمران: ٨.

عليكم بالصدق (١)

أخي المسلم:

إنَّ الإنسانَ - في هذه الحياة - مُمْتَحَنٌ ومُخْتَبَرٌ. والحياةُ - بعوارضها - مادةُ امتحانٍ للإنسان يُرَى فيها موقفُ الإنسان، أَيَسُوقُه الهوى الكذوبُ ؟ أم يكون هواه تبعاً لما جاء به نبيُّه ﷺ.

وهذه المغالبة لا ينفع معها إلا الصِّدق. الصدقُ في الخطأ وفي الصواب.

(في الخطأ): ندمٌ، واعترافٌ، واستغفارٌ، وأداءٌ للحقِّ دون مُكابرةٍ.

(وفي الصواب): شُكرٌ لله، واعترافٌ بفضله.

وكَم حقَّق الصدقُ لصاحبه انتصاراً في صراع الحياة، وكم دَمَّرَ الكذبُ أهلَه - وهو مُدمِّرٌ في جميع الأحوال - بعواقبه وتبعاته.

صِدْقٌ في العقيدة لا تنازعه ريبةٌ أو شَكٌّ في عهد الله ووعده. صِدْقٌ في القول، وصِدْقٌ في العمل، تتحقَّقُ به النتائج، ويهدى به اللهُ إلى النجاة وإلى طريق مستقيم.

في الحديث المُتَّفَق عَلَيْه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (١)

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، رقم ٥٦٢٩.

إن الناس لا يُترَكُونَ لدعوى الإيمان دونَ امتحانٍ وابتلاء ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ (١)

وللصدقِ نتائجُه، وللكذبِ آثارُه..

لقد بايع الرسولَ ﷺ مَن بايع تحتَ الشجرة، وكانت القلوبُ صادقةً بارَّةً راشدةً، وعَلِمَ الله منها ذلك، فجاءت النتيجة.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ (٢)

ولقد تخلَّفَ مَن تخلَّفَ في غزوة (تبوك)، وكَذِبَ مَن كَذِبَ في إبداء عُذْرِه، وصَدَقَ مَن صَدَقَ في الاعتراف بخطئه، والرجوعِ إلى ربِّه، وجاءت النتيجةُ كاشفةً لما طَوَتْهُ النفوسُ من صدقٍ أو كذبٍ، جاءت مُنجية في الصدق، مُدمِّرة في الكذب.

عاد الرسول ﷺ من تبوك، وجاء المخلَّفونَ يعتذرون إليه ويحلفون، فَقَبِلَ منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، وَوَكَلَ إلى الله سرائرهم. وجاء كعبُ بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو أحدُ الذين خُلِّفوا - فلمَّا سَلَّم على رسول الله ﷺ تبسَّم في وجه تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: « تَعَالَ » يقول كعب: فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: « مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ

(١) العنكبوت: ١- ٣.
(٢) الفتح: ١٨.

اللَّه، إِنِّي وَاللَّه لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِه بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنِّي وَاللَّه لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِه عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيه، إِنِّي لأَرْجُو فِيه عُقْبَى اللَّه. وَاللَّه مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّه مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ » (١)

(الله أكبر). فَبِمَ قضى الله فيمَن صدق ؟

توبةٌ نزل بها الوحيُ في قرآنٍ يُتْلَى ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (٢)

قال كعبٌ – وقد جاء إلى رسـول الله ﷺ بعد أن وَصَّل البشرى صوتٌ إليه: « سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ، وَيَقُولُ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّه ؟ فَقَالَ: لا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّه » قال كعبٌ وهو يُحدِّثُ بحديثه: « يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ. قَالَ فَوَاللَّه مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ – مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا – أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي اللَّهُ بِه، وَاللَّه مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً

(١) مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٤٩٧٣.
(٢) التوبة: ١١٨.

مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ....، وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسْلامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا. إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، والْكَذِبَ رِيبَةٌ.

« مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ » (٢)

« الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » (٣)

أين النجاة ؟ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (٤)

* * *

(١) التوبة: ٩٥، ٩٦.

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله، رقم ٣٥٣٢.

(٣) البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بيّن البيّعان ولم يكتما ونصحا، رقم ١٩٣٧.

(٤) التوبة: ١١٩.

عليكم بالصدق (٢)

أخي المسلم:

الصِّدْقُ طمأنينةٌ ونجاةٌ.

طمأنينةٌ لصاحبه وللمجتمع الذي يعيشُ فيه.

ونجاةٌ من الوقوع في الفجور وما يُؤدِّي إليه.

في الحديث المُتَّفق عَلَيْه، عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (١)، وروى الترمذيُّ عن أبي محمد، الحسن بن علي بن أبي طالب، قال: « حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ » (٢)

وجديرٌ بِمَن يعرفُ ربَّه أن يكون صادقاً في جميع أمرِه، (مع نفسه، ومع الناس).

مع نفسه، فلا يخدعها بالأماني الكاذبة، ويُغريها بالتطلع إلى ما لا يَحلّ، بل عليه أن يُخضعها لما يُحبُّ اللهُ ورسولُه ويرضى، وأن يجعل هواها تَبَعاً لما جاء به النبيُّ ﷺ، وأن يُحاسبها حسابَ مَن يرقُبُ الغدَ وينظُرُ إليه، ويُدركُ العواقبَ، ولا يُفتَنُ بالرغائب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٢، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حسنٌ صحيحٌ.

إنَّ الصدق مع النفس يحملها على صفاتِ الخير، من: القناعة، والرضى، والعفاف، والاستقامة. ويُبعدها عن صفاتِ الشر، ويجعلها تَزِن الأمورَ بميزانِ العواقب، فلا يُقبِلُ على ما تشكُّ في حِلِّه، وإنْ رَغِبَت فيه أو تطلَّعت إليه.

عن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ. فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ » (١)

الصدقُ يصونُ النفسَ، ويحملها على الجادَّة، ويُبعدها عن مواطن الرِّيبة « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ »، والصادقون لا يرضون بخداع أنفسهم، أو الغفلة عن عيوبهم؛ فإن الرِّضى عن النفسِ – وإن أساءت – خيانةٌ لها وغَدْرٌ بها. ولقد كان عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو لمن يُبَصِّره بعيبه، ويُعدُّ ذلك هديةً تُهدَى إليه، ويقول: « رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي » (٢)

والصدق مع الناس يُحقِّقُ الثقةَ والأمنَ، والطمأنينةَ والحبَّ. وعماد ذلك كُلِّه أن يكون العبدُ صادقاً مع ربِّه في جميع أمره، في صوابه وخطئه، فإن أحسنَ شَكَرَ ربَّه، وأسْنَدَ الفضلَ إليه، وإن أخطأ سارعَ بالتوبة والاستغفار.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٠.
(٢) الدارمي: المقدمة، رسالة عباد بن عباد الخواص الشامي، رقم ٦٤٧.

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

الصدق مع الله هو عمادُ الأمر كُلِّه؛ لأنه يلازمُ الخشية، خشية الله في كُلِّ عمل.

والخشيةُ التي تنشأ عن معرفةٍ صادقة يستقيم معها أمرُ الإنسان. وكيف لا وهو يعلمُ أنَّ الله يعلمُ السِّرَّ وأخفى.

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢)

فلا ينفعُ مع الله إلاَّ الصدقُ، ولا يُنجي من عذابه إلاَّ الصدق، ولا يُحقِّقُ عَفْوَه ومغفرته ورضاه إلاَّ الصدق.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٣)

الصدقُ نجاةٌ. وهذا ما أقسم عليه "كعبُ بن مالك" وهو يتلقَّى توبةَ الله عليه، وهو بين يدي رسول الله ﷺ يستمع إلى ما أوحى الله به إليه.

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (٤)

---

(١) آل عمران: ١٣٥.
(٢) الملك: ١٣.
(٣) الفتح: ١٨.
(٤) التوبة: ١١٨.

قال كعب: « يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ...، وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسْلامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا » (١)

* * *

(١) سبق تخريجه.

opeikandl.com

دروس من يوم الفتح

أخي المسلم:

يعرفُ الناسُ من السيرة النبوية أنَّ السببَ المباشرَ لفتح مَكَّةَ هو: نَقْضُ قريشٍ لعهدِها في "صُلح الحديبية" بمعاونتها وتحريضها لبني بكر - التي دخلت في عَقدها وعَهدها - على خُزاعَةَ التي دخلت في عهدِ رسول الله ﷺ وعَقده.

والأمر كذلك، فقد نقضت قريشُ ما عاهدت، وغدرت وفجرت في وقتٍ وَفَّى به المسلمون بعهدهم وفاءً لم يعرف التاريخُ أَبَرَّ ولا أكرمَ منه.

ألَمْ يأتِ "أبو جندل بن سهيل بن عمرو" يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسولِ الله ﷺ والرسولُ يكتبُ الكتاب هو و"سهيل بن عمرو"، فلما رأى سهيل ابنَه "أبا جندل" قام إليه فضرب وجهه، ثم قال: « يا محمدُ، قد لجَّت القضيةُ بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا » وكان من شروط الصلح أنَّ مَن أتى محمداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه رَدَّه عليهم، ومَن جاء قريشاً ممَّن مع محمدٍ لم يرُدَّه.

وسهيل يعني هذا الشرط وهو يقول للرسول « قد لجَّت القضيةُ بيني وبينك » وقد جاء "أبو جندل" والكتاب يُكتَب، فقَالَ له ﷺ: « صَدَقْتَ »، فصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ وقال: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتُرَدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ له: « يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ، وَاحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ، وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ، فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ » (١)

ولما جاءه أبو بصير "عتبة بن أسيد" إلى المدينة بعد الصلح، رَدَّه كذلك، وقال:

---

(١) السيرة الحلبية: ٢/٧٠٨.

« يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومَخْرَجاً » (١)

لكنَّ أبَا بصيرٍ استطاع أن يفلت بنفسه في طريق العودة؛ حتى لا يُفتَنَ في دينه، وانضم إليه مَن علم بأمره من المستضعفين، واستطاعوا أن يُضيِّقوا على قريش، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلاَّ آواهم؛ فلا حاجةَ لهم بهم ! فآواهم رسولُ الله ﷺ، فقَدِموا عليه بالمدينة، ولم يعد "أبو بصير" إلى رسول الله ﷺ؛ ذلك أن الإذن بالمقام معه جاءه وهو في سكراتِ الموت، ولم يأذن الرسول ﷺ لهؤلاء الصفوةِ الكرام – أن أتُوا إلى المدينة – إلاَّ بعد أن نزلت قريش عن الشرط الذي أمْلَتْهُ تعسُّفاً، وقَبِلَهُ المسلمون على كُرهٍ؛ وفاءً منه ﷺ، وقال: « إنا لا نعبد ربَّهم، ولا يصح لنا في ديننا الغدر ».

ولكن عندما يفي المؤمنون بعهدهم، ويأبى الكُفْرُ إلاَّ الخيانة والغدر، عندئذٍ يجب على الأُمَّة الإسلامية أن تكونَ على قلبِ رجلٍ واحد في مجابهة الباطل، وحَسْمِ شرِّه وفساده؛ تأميناً للناس، وحِفظاً لحقوقهم، واستجابةً لأمر الله الذي أنزل الكتاب والميزانَ؛ ليقوم الناس بالقسط.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) راجع: تفسير ابن كثير ٤/١٩٨.

(٢) الحديد: ٢٥.

وهذا ما كان من رسول الله ﷺ عندما عَلِمَ بغدر قريش ومعاداتها لبني بكر، وما كان من المؤمنين معه حينما جاء "أبو سفيان" إلى المدينة يعتذر عن هذا الغدر، ويُصلِحُ ما أفسده قومُه، ويُعِد للعَقْد المُهْدَرِ حُرمَته، لم يجد أحداً من المسلمين يستمعُ إليه، أو يستجيب له في التحدُّث إلى رسول الله ﷺ !

لكنَّ خطأً واحداً مُتَأَوَّلاً وَقَعَ من "حاطب بن أبي بلتعة" رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذْ أرسل كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمع عليه رسولُ الله ﷺ من الأمر في السَّير إليهم، وأعطاه امرأةً، وجعل لها جُعْلاً على أن تُبلِّغه قريشاً، وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطبٌ، فبعث ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ والزبيرَ بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُما في طلبها، وجاءا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ.

ولما عاتب الرسولُ ﷺ حاطباً، قال: « يا رسول الله، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا غَيَّرْتُ وَلا بَدَّلْتُ، وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرِئً لَيْسَ لِي فِي الْقَوْمِ مِنْ أَصْلٍ وَلا عَشِيرَةٍ، وَكَانَ لِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَلَدٌ وَأَهْلٌ، فَصَانَعْتُهمْ عليهم » فقال عمرُ: « يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه؛ فإن الرجلَ قد نَافَقَ » فقال رسول الله ﷺ: « وما يُدريك يا عمرُ، لعل الله قد اطَّلع على أصحاب بدرٍ يومَ بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرتُ لكم » هذا الحادث المتأوَّل – كما نرى – كان فيه نعمةٌ من الله على المسلمين جميعاً بما أنزل من قرآنٍ يُتْلَى؛ يُنبِّهُ ويُحذِّرُ أن يقعَ من أحدٍ منهم مثلَ ما وقع، والعِبرةُ بعمومِ اللفظ لا بخصوصِ السبب، فهو تحذيرٌ عامٌ، ونهيٌ عامٌ أن يتَّخذَ المؤمنُ الكافرَ وَلِيًّا.

وهذا نداء الله للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ

وَإِيَّاكُمْ ۚ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

موقفٌ لحاطب - فيه خطأٌ مُتأوَّلٌ - نزلت بعده هذه الآية؛ لتُبيِّنَه، وتُذكِّر المؤمنين بما يجبُ أن يكونوا عليه مع عدوِّ الله وعدوِّهم.

درسٌ آخرَ نتعلمه من يوم الفتح: ذلك أن الباطلَ لا يأوي إلى حجمه إلاَّ أمام صولةِ الحقِّ، وبغير قوَّةِ الحقِّ يزدادُ تطاوله، ويمتدُّ بَغْيُه.

تَطَاوَلَ "حماسُ بنُ قيسٍ" وتَمَطَّى أمام زوجه قبل دخول الرسول ﷺ إلى مكة، وأخذ يَعِدُها بخادمٍ من المسلمين، وقد رأته يُعِدُّ سلاحاً، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: لِمَاذَا تُعِدّ مَا أَرَى ؟ قَالَ: لِمُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ. قَالَتْ: وَاللّهِ، مَا أَرَاهُ يَقُومُ لِمُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ.

(١) الممتحنة: ١- ٤.

قَالَ: وَاللَّهِ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أُخْدِمَكَ بَعْضَهُمْ.

وما إن جاءت قوَّةُ الحقِّ، وعملت عملها في تطهير الأرضِ من رجس الباطل وزُوره، حتى وَلَّى حماسُ منهزماً إلى بيته، ثُمّ قَالَ لامْرَأَتِهِ: أَغْلِقِي عَلَيَّ بَابِي، قَالَتْ: فَأَيْنَ مَا كُنْت تَقُولُ ؟ فَقَالَ:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْت يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ، وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

وَأَبُو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالْمُوتَمَهْ (١) ... واستقبلتهم بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَهْ

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فَما يُسْمَعُ إِلاَّ غَمْغَمَهْ

لَهُمْ نَهِيتٌ (٢) خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

أخي المسلم: درسٌ من دروس يوم الفتحِ يُعلِنُ فيه الحقُّ مبادئه، ويُعلي كلمة الله، ويعفو عن كُلِّ مَن أعلن خضوعه للحَقِّ واستسلم له، ويُتَوَّج الفتحُ بكلماتِ الآذان - المُبيِّنة عن مبادئ الإسلام - في صوتِ بلال الذي أُمِرَ أن يُؤذِّنَ من فوق الكعبة بـآذان مُمْتَدٌّ إلى يوم القيامة.

الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

* * *

(١) أبو يزيد: يَزيدُ سهيل بن عمرو، وكان خطيبَ قريش، والمؤتمة: الاسطوانة.

(٢) النهيت: الزئير.

أخلاق المجاهدين

أخي المسلم:

من صفاتِ المجاهدين: حُسْنُ استجابتهم لأمر الله، وصِدقُ رغبتهم فيما عنده.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ. فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ [1]، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلامَ، ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ، فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ » [2]

ذاكَ خُلُقُ المجاهد: صِدْقُ عزيمةٍ، وتجرُّد، وسَبْقٌ إلى ما يُحبُّ الله ورسوله.

« يَا أَبَا مُوسَى، آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ: نَعَمْ »

يكفي هذا القَدْرُ لِعِلْمِ الرجل واستجابته في غيرِ إبطاءٍ، ولا بحث عن الأعذار. يُقرئ أصحابَه السلام، ثم يمضي؛ ليطرُقَ أبوابَ الجنة تحت ظلال السيوف !

وروى مسلم عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ فَتًى مِنْ أَسْلَمَ [3] قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ الْغَزْوَ وَلَيْسَ مَعِي مَا أَتَجَهَّزُ. قَالَ: ائْتِ فُلانًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ. فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: أَعْطِنِي الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ. قَالَ: يَا فُلانَةُ [4] أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئًا؛ فَوَاللَّهِ لا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئًا

---

(١) الرَّثُّ: الشَّيْء الْبَالِي. وفُلان رَثُّ الْهيْئَة، وَفِي هَيْئَتِه رَثَاثَةٌ، أَيْ بَذَاذَة.

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ٣٥٢١.

(٣) اسم قبيلة.

(٤) أي زوجته.

فَيُبَارَكَ لَكَ فِيهِ » (١)

خُلُقُ المجاهدين تراه في مريضٍ حبسه المرضُ، وفي فتىً يأخذُ بالأسباب التي تمكّنه من الجهاد في سبيل الله.

المريضُ مجاهدٌ بما ملك، فلا يضن - وقد حبسه المرضُ - بما تجهَّز به وقد يكون في حاجة إليه، ولا يحبس منه شيئاً، ويقول لزوجه: « أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلَا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئًا؛ فَوَاللَّهِ لَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ »

والفتى يجودُ بنفسه، ويبحثُ عمَّا يحمله، ويذهب إلى رسول الله ﷺ يسأله عمَّا يتجهَّزُ به.

أخلاقٌ رفيعةٌ، وهممٌ عاليةٌ تنشُدُ رضا الله وترجو ثوابه. فلا المريض يُقْعِده مرضُه عن بذلٍ وسخاء، ونيَّةٍ وثَّابَة تتحرَّكُ مع المجاهدين، ولا الصحيح يمنعه فقرٌ عن التماسِ الأسبابِ التي تُحقِّقُ له الفوزَ بإعلاء كلمة الله.

نفوسٌ رَغبت فيما عند الله، فوُهِبَت لها الحياة.

وكان هذا دأبُ الرجال والنساء، والكبار والصغار.

جيلٌ تربَّى على يدِ رسول الله ﷺ، فعرف معنى الحياة، وصَدَقَ ما عاهد الله عليه، فظَفَر بعزِّ الدنيا وسعادة الآخرة.

روى البخاريُّ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ - وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ - أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ - وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ (٢) - فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم ٣٥١٠.
(٢) أيْ: لا يُعْرف رَامِيه، أوْ لا يُعْرف مِنْ أيْن أتَى، أوْ جاءَ على غَيْر قصْد مِنْ رَامِيه.

اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ. قَالَ: يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى » (١)

وفي رواية أخرى للبخاري أنها قالت: « يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ. فَقَالَ: وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ (٢) ! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ » (٣)

تحزنُ الأُمُّ على فُقدان ابنها، ولكنها - هُنا - تسأل عن عاقبة أمره « فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ »، وفي رواية: « فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ » (٤)

خُلُقُ المجاهدات. تَشْرُفُ بموته في سبيل الله، وتحزن إن فاته ذلك، وتعودُ من عند رسول الله راضيةً صابرةً مُحتسبةً؛ فقد ظفر ابنُها بأعلى ما يظفرُ به داعٍ يدعو ربَّه.

« إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » (٥)

أخي المسلم: من أبرز صفاتِ المجاهدين: الصِّدْقُ في جميع أحوالهم، في العُسر واليُسر، والشدةِ والرخاء. وهذا الصدقُ قد حقّق لهم - جميعاً - الشهادةَ، وإن لم تُصبهم جميعاً، كما جاء في صحيح مسلم، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول ﷺ:

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله، رقم ٢٥٩٨.
(٢) أوَهبلتِ؟: بفتح الهاء وكسر الباء، وقد استعاره ههنا لفقْد المَيْز والعقْل مما أصابها من الثُّكْل. والمعنى: أفقدتِ عقلَكِ بفقْد ابنك حتى جعلتِ الجنانَ جنّة واحدة ؟!
(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم ٣٦٨٣.
(٤) البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٠٨٢.
(٥) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٥٨١.

« مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ » (١)

وهؤلاء قد طلبوها صادقين، ولم يُقصِّروا في الأخذ بالأسباب، وكثُروا عند الفزع؛ لأن قويَّهم وضعيفَهم، وكبيرَهم وصغيرَهم قد أقبلَ ولم يُدبر، وطلب صغيرُهم الإذنَ قبل أن يُؤذَنَ له، ورغب ضعيفُهم في الجهاد؛ طمعاً في رحمة ربِّه.

أخلاقُ المجاهدين تطيبُ بها الدنيا، ويأمن بها الناس. إن أصحابها يكثرون عند الفزع، ويقلُّون عند الطمع.

وهل ساءت أحوالُ الناس إلاَّ من طامعٍ لا يقنَع ؟ ومن شَرِهٍ لا يشبع ؟ ومن مخادعٍ يُظهر ما لا يُبطن، ويقول ما لا يفعل ؟

أخلاقُ المجاهدين يجب أن تسودَ؛ لتأمن الدنيا من عبث العابثين، وإفساد المفسدين، ولينحسر النفاقُ من حياة الناس.

إنَّ المجاهد: صادقٌ، بارٌّ، طَهُورٌ، يحترس من المعصية، ويخاف منها أشدَّ من احتراسه من عدوِّه، ويدرك أنه لن يَنْصُرَ الله في معركة حتى ينصره في نفسه، بتغليب أمره على هواه، ويعلم أنه إن لم ينتصر بفضله، فلن يغلبَ بقوَّته.

فهل نحتاج دنيا الناس لأكثرَ من ذلك ؟ من مجاهد طَهور في نفسه، وينشُد الطُّهرَ لغيره ؟ ومن مجاهدٍ انتصرت الفضائلُ في نفسه، فيكون فاضلاً كريماً في جميع أمره.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم ٣٥٣١.
(٢) الحجرات: ١٥.

من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعنيه

أخي المسلم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ » (١)

وما لا يَعني المرءَ هو: المُحرَّمات بكُلِّ أنواعها، صَغُرَت أو كَبُرَت.

وما يَعنيه هو: ما أوجبه الله تعالى، ودَعَى إليه.

إنَّ الأمرَ يرتبط بالإسلامِ أيَّمَا ارتباط، فلا يُحدِّدُ الإنسانُ بهواه ما يَعنيه وما لا يعنيه؛ وإلاَّ كان الأمرُ أمرَ هوىً، ووقع الفسادُ، وضَلَّ العبادُ.

وإنما الشَّرعُ الحكيم هو الذي يُحدِّدُ ما يعني الإنسان وما لا يعنيه. ولذا جعل تَرْكَ ما لا يعني من حُسْنِ الإسلام؛ لأنه مرتبطٌ بالطاعة والاتِّباع، فإذا أحسنَ الاتباعَ، وأخلصَ في الطاعة، حَسُنَ إسلامه.

واقتضى ذلك تَرْكَ ما لا يعني من المُحرَّمات والمكروهات، بل وفضول المباحات، واشتغل المرءُ بما يعنيه مِمَّا تكمل به نفسُه من صِدق النية وصالحِ العمل.

فالأمرُ ليس متروكاً للهوى يُحدِّدُ به الإنسانُ ما يأخذُ وما يَدَع، وإنما هو أمرُ الشرعِ يُحدِّدُ ما يعني الإنسانَ وما لا يعنيه.

وعليه يكون الحساب والجزاء، وبه يُعرَف المحسن من المسيء.

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم ٢٢٣٩، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

obeikandl.com

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٣)

إنَّ هذه الإحاطة بشئون الإنسان - ظاهرِه وباطنِه، سرِّه وعلانيته - تجعله وقَّافاً عند حدودِ الله، يحفَظُ قلبَه ولسانَه وجوارحَهُ مِمَّا لا يَعنيه من فضولِ القول وسَيِّء العمل.

قال عمرُ بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « مَنْ عَدَّ كلامه من عَمله، قَلَّ كلامُه إلاَّ فيما يَعنيه »

إنَّ كثيراً مِمَّا يتناجى به الناسُ قد نفى اللهُ الخيرَ عنه، فقال: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) ق: ١٦- ١٨.
(٢) يونس: ٦١.
(٣) الزخرف: ٨٠.
(٤) النساء: ١١٤.

وقد خرَّجَ الترمذيُّ وابنُ ماجة، من حديث أُمِّ حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْها، عن النبيِّ ﷺ قال: « كُلُّ كَلامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لا لَهُ، إلاَّ: أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ » (١)

وخرَّج الترمذيُّ من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: « تُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ - يعني النبي ﷺ - فَقَالَ - يَعْنِي رَجُلاً: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَلا تَدْرِي، فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخِلَ بِمَا لا يَنْقُصُهُ » (٢)

أخي المسلم: إنَّ حُسْنَ إسلام المرء يُضاعِفُ الحسنات، ويُكفِّرُ السيئات، ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ » (٣)

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: « قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ: أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الإِسْلامِ فَلا يُؤَاخَذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلامِ » (٤)

فكُنْ حريصاً على إسلامك، مُحافظاً على ما يُقرِّبُك من ربِّك. واحذَرْ أن تستجيبَ لهوى النفس فيما تدعوك إليه، واجعل هواك تبعاً لمرضات ربِّك وما جاء به

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب منه، رقم ٢٣٣٦، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم ٢٢٣٨، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كُتبت وإذا همَّ بسيئة لم تكتب، رقم ١٨٥.

(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية، رقم ١٧١.

رسول الله ﷺ؛ فإنَّ الخضوع للهَوى يُضِلُّ عن سبيل الله.

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

وكُنْ رقيباً على لسانِك؛ فإن حصائدَه تكِبُّ الناسَ على وجوههم في النار.

« وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » (٢)

« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » (٣)

وهذا يدُلُّ على خَطَرِ اللسان، وما يؤدِّي إليه من نجاةٍ أو هلاك.

ولذا جاء فيما رواه الترمذيُّ، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ (٤)، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا » (٥)

وروى أبو داود عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: « لَمَّا عُرِجَ بِي

---

(١) ص: من الآية ٢٦.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أيْ: تتذلَّلُ وتتواضعُ لهُ. منْ قولِهِمْ: كفَّر اليَهوديُّ، إذا خضَع مُطأْطِئاً رأْسَهُ وانْحنَى؛ لِتعْظِيمِ صاحبِه.
(٥) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم ٢٣٣١، وقال: هذا حديثٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ حديث حمَّاد بْنِ زيْد، وقَدْ رَوَاهُ غيْرُ واحد عنْ حمَّاد بْنِ زَيْد ولَمْ يرْفَعُوهُ.

مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ » (١)

فطُوبَى لمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس.

طُوبى لمن انفقَ الفَضْلَ من ماله، وأمسكَ الفضلَ من قوله.

فكُن رقيباً على نفسِك، مُحاسِباً لها، ساعِياً في نجاتِها وفلاحِها، مُحبًّا للخير، داعِياً له، مُبغضاً للشر، ناهِياً عنه.

وإيَّاك والدخول فيما لا يَعنيك، واعلم أن الجوارح شاهدةٌ عليك غداً بما عملت ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

* * *

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب فى الغيبة، رقم ٤٢٣٥.

(٢) النور: ٢٤، ٢٥.

obeikandl.com

أنزلوا الناسَ منازلَهم

أخي المسلم:

إنَّ المجتمعَ الفاضلَ تحكُمُه قِيَمٌ وفضائلُ، تستندُ إلى صِدْقِ الإيمان بالله واليوم الآخر. وهذه الفضائلُ والأخلاقُ يتلقَّاها الصغيرُ عن الكبير، وينشأُ على مراعاتِها عملاً وتطبيقاً.

والطفلُ يُقلِّدُ أهلَه، ويُحاكي ما يراه في البيئةِ من حوله.

والبيئةُ الصالحةُ تُدركُ هذه الحقيقة، فلا تُهمِلُ شأنَ الطفل، ولا تَدَعُه صريعَ تناقضٍ في التوجيه أو السلوك الذي يحاكيه.

ومن الآدابِ التي يأمرُ الإسلامُ بها، ويدعو إليها: احترامُ الكبير، وتقديمُ أهلِ الفضلِ على غيرهم؛ فإن ذلك مِمَّا يُحقِّقُ الترابط والتراحم، بل يحفظُ القِيَمَ ويصُونُ الأخلاق.

في الحديث المُتَّفقِ عَلَيْه عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّه ﷺ غُلامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ أَنَّ هَا هُنَا رِجَالاً هُمْ أَسَنُّ مِنِّي... الحديث »[(١)]

وروى الترمذي، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ، إِلاَّ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ »[(٢)]

---

(١) مسلم: كتاب الجنائز، باب أين يقوم الإمام من الميت للصلاة عليه ؟ رقم ١٦٠٣.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في إجلال الكبير، رقم ١٩٤٥، وقال: هذا حديث غريبٌ، لا نعرفهُ إلاّ منْ حديث هذا الشيْخِ يزيد بْنِ بيان.

الجزاءُ من جنْسِ العمل. والجزاء - في عاجلٍ أو آجلٍ - لا يضيع منه شيءٌ؛ لأنه مبني على علمٍ محيطٍ بكُلِّ شيء.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

وروى الترمذيُّ عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا » (٢)

أدبٌ ينشأُ عليه الصغيرُ وهو يجد الرعايةَ والرحمةَ من المجتمع الذي تسودُ فيه مكارمُ الأخلاق، فيعرف كيفَ يتعامل مع الناس، ويضعُ نفسَه في موضعها، ويُنْزِل الناسَ منازلهم؛ **فإنَّ ذلك مما دعا الرسول ﷺ إليه، وأمر به.**

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: « أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » (٣)

وقد كان الرسولُ ﷺ يفعلُ ذلك أمامَ صحابته؛ ليُبيِّن لهم ما يتفاضلونَ به، وما يُكرَمون عليه.

روى البخاريُّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ ؟

---

(١) المجادلة: ٧.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم ١٨٤٢، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.

(٣) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم ٤٢٠٢.

فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ »[(١)]

وكان يأمُرُ أن يؤُمَّ القومَ أقرؤهم لكتابِ الله.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِنًّا »[(٢)]

وكان ﷺ يقولُ - وهو يتقدَّم الناسَ للصلاة -: « اسْتَوُوا، وَلا تَخْتَلِفُوا؛ فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »[(٣)]

وروى أبو داود عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ[(٤)] إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ[(٥)]، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ[(٦)] غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ[(٧)] وَالْجَافِي عَنْهُ[(٨)]، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ[(٩)] »[(١٠)]

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب من يُقدّم في اللحد، رقم ١٢٦١.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة ؟ رقم ١٠٧٨.

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول، رقم ٦٥٤.

(٤) أيْ تبْجيله وتعْظيمه.

(٥) أيْ تعْظيم الشَيْخ الْكبير في الإسْلام، بتوْقيره في الْمَجالس، والرِّفْق به والشَفَقَة عليْه، ونَحْو ذلكَ.

(٦) قال الْقاري: أيْ وإكرام قارئه وحافظه ومُفسِّره.

(٧) الْغلُوّ: التَشْديد ومُجاوزة الْحدّ، يعْني غيْر الْمُتجاوز الْحدّ في الْعمَل به، وتتبُّع مَا خفِي منْهُ واشْتبَهَ عليْه منْ معانيه وفي حُدُود قراءته ومخارج حُرُوفه.

(٨) أيْ: وغيْر الْمُتباعد عنْهُ، الْمُعْرض عنْ تلاوته، وإحْكام قراءته، وإتْقان معانيه، والْعمل بما فيه. وقيل: الْغلُوّ الْمُبالغة في التجْويد، أوْ الإسْراع في الْقراءة بحيْثُ يمْنعهُ عنْ تدبُّر الْمعْنى. والْجفَاء: أنْ يتْركهُ بعْد ما علمهُ، لا سيَمَا إذا كان نسيهُ؛ فإنّهُ عُدَّ منْ الْكبائر.

(٩) أيْ: الْعادل.

(١٠) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم ٤٢٠٣.

وبهذا التوجيهُ النبويُّ الكريمُ يتنافَسُ الناسُ في الفضائل، وتسمو نفوسُهم.

يتنافسون على ما يزيد البرَّ والخيرَ بينهم؛ فإن تكريم ذوي الفضل يزيد من الفضلِ بين الناس؛ وإكرامَ أولي العلم يحثُّ على الأخذ به، والمسارعةِ إليه؛ واحترام الكبير وتوقيره يصونَ المجتمعَ من الضياع ومجاوزة الحدود، ويُحقّقُ الطاعةَ في المعروف.

فإذا أُهينَ قَدْرُ الكبير، ولم تُسْمَع في المعروف كلمتُه، وقَعَ التسيبُ في المجتمع، وسادت الفوضى، واختلَّ الأمنُ، ولم يجد الناسُ مرجعاً للأسرة يحكم صغارَها، ويرعى شئونها؛ ففي كثيرٍ من قضايا الناس يكفي لحسمها توقير كبيرٍ يُرجَع إليه، وتُسمع كلمته.

وتلك من مقوِّمات التماسك بين أفراد الأمة ورعاية شئونها؛ فاحترامُ الكبير وتوقيرُ أهل الفضل من عواملِ الأمن والاستقرار في حياة الأُمة.

والأُمة تعظُمُ بأفرادها، وتكبُر بأولي الأحلام والنُّهَى فيها، وتُصانُ بمراعاةِ الأخلاق والفضائل في كُلِّ شأنٍ من شئونها.

ولا شيءَ يُودي بالأمم، ويُعرِّضها للضعف والهَوان، كالاستخفاف بالقِيم، والاستهانة بالأخلاق « وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت »

ومن الأخلاق: أن يُنْزَلَ الناسُ منازلهم، وأن نَعرِفَ للكبير حقَّه، وأن نُطيعَ أمرَه (في المعروف)، وأن نُقدِّمه فيما يجبُ أن يتقدَّمَ فيه، وألاَّ نَسْبِقه بالقول، أو نُبْدِي رأياً قبل رأيه؛ فإنَّ ذلك من حقِّه، ومن الأدبِ الذي دعا الإسلامُ إليه، وأمر الرسولُ ﷺ به، فما كان يأذَنُ لصغيرٍ أن يتكلَّمَ وفي القوم كبيرٌ، بل كان يُسكِت الصغيرَ إذا ذهبَ يتكلَّمُ بقوله: « كَبِّرْ، كَبِّرْ » أي: اجعل الكلامَ لمن هو أكبرُ منك سِنًّا.

روى البخاريُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَ: « انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ،

وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ، فَتَفَرَّقَا، فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَمَّطُ (١) فِي دَمِهِ قَتِيلاً، فَدَفَنَهُ، ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ: كَبِّرْ كَبِّرْ (٢) وَهُوَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ. فَسَكَتَ، فَتَكَلَّمَا، فَقَالَ: تَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ أَوْ صَاحِبَكُمْ ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَشْهَدْ وَلَمْ نَرَ ؟ قَالَ: فَتُبْرِيكُمْ (٣) يَهُودُ بِخَمْسِينَ ؟ فَقَالُوا: كَيْفَ نَأْخُذُ أَيْمَانَ قَوْمٍ كُفَّارٍ ؟ فَعَقَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِهِ » (٤)

وقد حافظ الصحابةُ على ذلك وحفظوه، وهذا ما قاله أبو سعيد، سَمُرَةُ بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: « لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ الْقَوْلِ إِلاَّ أَنَّ هَا هُنَا رِجَالاً هُمْ أَسَنُّ مِنِّي... الحديث » (٥)

أخي المسلم: إن ديناً يرعى هذه الآداب، ويدعو إليها، جديرٌ أن يُتَّبع، وأن يُطاع. لقد دعا إلى كُلِّ خيرٍ، وبشَّر بنتائجه، وحذَّر من كُلِّ شَرٍّ، وبَصَّرَ بعواقبه.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾ (٦)

---

(١) أي يتخبط.
(٢) أيْ عظِّمْ منْ هُوَ أكْبر مِنْك وقدِّمْهُ فِي التَّكَلُّم.
(٣) أي تقسم بالبراءة.
(٤) البخاري: كتاب الجزية، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال، رقم ٢٩٣٧.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) الإسراء: ٩.

الذكر في حياة المسلم

أخي المسلم:

روى الترمذيُّ وغيرُه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ رَجُلا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. قَالَ: لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » (١)

إن الله تعالى قد مَدَحَ مَن ذَكَرَهُ وأثنى عليه. وأمر المؤمنين أن يذكروه ذِكراً كثيرا، وأن يُسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

إنَّ ذِكْرَ الله حياةٌ للنفس، وطمأنينةٌ للقلب.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣)

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٤)

إن الله قد وَصَفَ المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم ٣٢٩٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ منْ هذا الْوجْه.

(٢) الأحزاب: ٤١، ٤٢.

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) البقرة: ١٥٢.

ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [1]، فَمَنَ أكثر من ذِكر الله، فقد باينهم في أوصافهم.

وقد خُتمت سورةُ (المنافقون) بالأمر بذكر الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [2]

في صحيح مسلمٍ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ » [3]

إن آلام النفوسِ لا يُبددها إلاّ ذِكْرُ الله، وضعفَها لا يُقوّيه إلاّ الالتجاءُ إليه والتوكُّل عليه. كان بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كُلّما عذّبه المشركون في الرَّمْضَاء، يقول: (أَحَدٌ، أَحَدٌ)، فإذا قالوا له: قُلْ: واللاتِ والعُزَّى. قال: (لا أُحْسِنُه) !

ومن الذينَ يُظلّهم الله تحت ظِلّ عرشه، يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه « رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّه خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » [4] ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [5]

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) المنافقون: ٩.

(٣) مسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم ٥٥٨.

(٤) البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٢٠

(٥) الأنفال: ٢.

وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: على المسلمين أن يذكروا ربَّهم كُلَّ يومٍ وليلةٍ خَمْسَ مرَّاتٍ، بإقامةِ الصلوات الخمس في مواقيتها ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٢)

ومع هذه الفرائض شَرَعَ الله من النوافل ما يتقرَّبون به إليه. والفرائض - وما يرتبط بها من نوافل - خيرُ داعٍ ومُنبِّه إلى الذِّكْرِ المتصل؛ حتى لا تطول الغفلة عن ذكر الله.

وبها يبدأ يومُ الإنسان، حيث يُؤذَّنُ لصلاةِ الفجر، ويُختَم حيث يؤذَّنُ لصلاة العشاء.

خمسُ صلواتٍ تتخلَّلُ يومَ الإنسان: الأولى توقظه، والآخرة تُقدِّمه للنوم وتحفظه. وفترةُ ما بين اليقظة والنوم تأتي فرائضُ ثلاث تُطهِّرُ وتُذكِّرُ، تملأ النفس بالعزم والثقة، وتحوطها بشرف القصد وبرِّ اليقين. وهي تُقدِّمُ الجسدَ للطهر، وتغمرُ القلب بطمأنينةِ الذكر.

وفترة ما بين النوم واليقظة: الجسدُ نائم، والقلبُ يترقَّبُ ساعةَ السَّحَر؛ لينعَمَ بذكر الله، حيث تشهد ملائكة الله الموكبَ المتوضئ الطَّهور وهو يمضي خاشعاً إلى بيت الله. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَتَعَاقَبُونَ (٣) فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ

---

(١) الأعراف: ٢٠٥.
(٢) النساء: من الآية ١٠٣.
(٣) معناه: تأتي طائفةٌ عقيب أخرى.

وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » (١)

الفجرُ بدايةُ المنهج اليومي للمسلم الذي رفع جنبَه باسم ربِّه، فتذكَّر - حينَ ذاكَ - النشورَ.

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (٢)

« أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ فَتْحَهُ وَنَصْرَهُ وَنُورَهُ وَبَرَكَتَهُ وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ » (٣)

وأعجبُ ما في هذه الفريضة أن تظلَّ مشرقةً في النفس، تنامُ على لذَّةِ انتظارها، وتسعى ناعمةً بسرِّ قيامها.

وعند ضياعها، أو التفريط فيها، يصبح الإنسانُ خبيثَ النفس، فاترَ الهمَّة.

قال ﷺ: « لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا (٤) » (٥)، وعَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ. قَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ » (٦)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ

---

(١) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٢٢.
(٢) البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم ٥٨٣٧.
(٣) أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم ٤٤٢١.
(٤) الحبو: هو المشي على اليدين والركبتين.
(٥) البخاري: كتاب الأذان، باب فضل العشاء في جماعة، رقم ٦١٧.
(٦) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم ٣٠٣٠.

رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ (١)، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ » (٢)

وأمَّا ذِكْرُ الله باللسان فمشروعٌ في جميعِ الأوقات، ويتأكَّد في بعضها. ومن أفضل أنواع الذِّكر: تلاوة القرآن، وتعلُّمه، وتعليمه، والعلم النافع.

وعلى المسلم أن يكون مُتَّبعاً في ذِكر الله غير مُبتدِع، وأن يرى الثابتَ عن رسول الله؛ ليقتدي به. وكان ﷺ يُحبُّ جوامعَ الكلام، وقد بُعِثَ بها.

أخي المسلم: إنَّ ذِكْرَ الله نورٌ وطمأنينةٌ، وإنَّ الله قد جعله من أسبابِ النَّصْرِ في ملاقاةِ العدو، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣)، فكُنْ ذَاكِراً في جميعِ أحوالك، ولا يشغلنَّكَ معاشُكَ عن ذِكْرِ ربِّك؛ فإنَّ أمرَك كُلَّه لله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٤)

---

(١) وفي رواية أخرى: « انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا » البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم ٣٠٢٩.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل، رقم ١٠٧٤.

(٣) الأنفال: ٤٥.

(٤) الجمعة: ١٠.

هُمُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهم

أخي المسلم:

روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: « إِنَّ لِلَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلاً، يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قَالُوا: لا أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي ؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا: لا. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلانٌ، عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ؛ هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » (١)

أخي المسلم: أرأيتَ ما تؤدِّي إليه مجالسةُ الأخيار وصُحبَةِ الصالحين. أرأيتَ كيف نَجَا جليسُهم، وغُفِرَ له، مع ما كان منه. والملائكةُ يقولون: «رَبِّ، فِيهِمْ فُلانٌ، عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ »، فَيَقُولُ: « وَلَهُ غَفَرْتُ؛ هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »

أرأيت ما يؤدِّي إليه ذِكْرُ الله من رحمةٍ وفضلٍ، وما يكون عليه أولئك الذين

---

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم ٤٨٥٤.

يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

هل يستوي أولئكَ ومَن عاشَ في غفلةٍ عن غيره، وآثَرَ الحياةَ الدنيا ؟

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

مجالسةُ الأخيار تُعينُ على ذكر الرحمن، وتحفَظُ الإنسانَ من الذنوب والآثام. ونحنُ نعلمُ أن جميعَ أعمالنا وأقوالنا سنجدها عند الله، ونُجْزَى بها.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

ولقد دلَّنا رسولُ الله ﷺ على أبوابِ الخير، ودعانا إليها، وبَيَّنَ لنا سُبُلَ الشرِّ، ونهانا عنها، فاحرص - أخي المسلم - على ما دعاك إليه، واحذر ممَّا نهاك عنه.

في الحديث المُتَّفَقِ عَلَيْه، عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ (٤)، فَحَامِلُ الْمِسْكِ

(١) الزمر: ٩.
(٢) آل عمران: ٣٠.
(٣) الزلزلة: ٦- ٨.
(٤) الكير: آلة الحداد التي ينفُخ بها.

إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ (١)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً » (٢)

إن جليسَ السُّوء لا يُذكِّرك بربِّك، ولا يُعينك على إصلاحِ نفسك، ولا يُبصِّرك بعاقبةِ أمرك.

إنك لن تَنالَ منه إلاَّ ما يُحقِّق لك الحسرةَ، ويُحمِّلك التبعة.

إنَّ كُلَّ مجلسٍ لا يُذْكَرُ فيه الله وَبَالٌ على أهله في الدنيا، وحسرةٌ عليهم يوم القيامة. روى الترمذيُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً (٣)، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ » (٤)

أخي المسلم: أرأيتَ مَن تشقى بهم، ومَن تسعد بمجالسهم. فاجتنِب مجالس السوء، وكُنْ منها على حَذَرٍ، وجالس أهلَ التُّقى والصلاح، وأكْثِر من مجالستهم؛ فهم القومُ لا يشقى بهم جليسُهم.

وقَدِّم النُّصْحَ لِمَنْ حولك؛ حتى تسلم أُمَّتُنا الإسلامية من مجالس السوء، ومؤامرات الإفساد، ومخدِّرات العقول.

ولَنْ تسلم من ذلك إلاَّ إذا سلم لها دينُها، وبقيت أخلاقُها.

---

(١) أيْ يُعْطيك.
(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم ٤٧٦٢.
(٣) يعْني حَسْرةً وندامَة.
(٤) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، رقم ٣٣٠٢، وقَالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وبالأسحار هم يستغفرون

أخي المسلم:

لا أعرف شيئاً أَبَرَّ بالإنسان ولا أكرمَ له من تقوى الله ﷻ.

وواجبٌ على كُلِّ مسلمٍ أن يعرف صفاتِ أهل التقوى؛ ليسلك سبيلَهم، ويَظْفَر بأجرهم وثوابهم. ومِمَّا جاء في صفاتِ المتَّقين وجزائِهم قولُه تعالى في سُورة الذَّاريات:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

إنهم يحرصون - دائماً - على مرضاتِ ربِّهم، وحُسْنِ استجابتهم لله وللرسول فيما فرض عليهم في أنفسهم وأموالهم، ولا يُفْقَدُونَ حين يُطْلَبُ منهم عملُ الخير، وفي ساعةِ رجاءٍ واستغفارٍ وبِرٍّ. لا يشغلهم عن ذلك طلبُ متاعٍ أو زينة حياة.

لقد عرفوا فَلَزِموا، وأيقنوا فاستجابوا، فأخذوا زادَهم لِغَدِهم، وأنارُوا دُنياهم بطاعةِ ربِّهم. فحفظوا في دُنيا الناس أَبَرَّ الصفاتِ، ونالُوا في الآخرة أحسنَ الثواب وأكرمَ الجزاء. لم يُفتَتَنُوا بما زُيِّنَ للناس من حُبِّ الشهوات، وإنما أخضعوا ذلك كُلَّه لمرضات ربِّهم، وسَخَّرُوا زينةَ الحياة لحقائقها، وفانيها لباقيها، ففازوا بحياةٍ طيبةٍ ونعيمٍ مُقيم.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ

---

(١) الذاريات: ١٥ - ١٩.

ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

أرأيتَ - أخي المسلم - ما فَازَ به أهلُ التقوى، وما كانوا عليه في ليلهم ونهارهم، ويُسرهم وعُسرهم. إنَّ صفاتِهم وأعمالَهم تُنبئكَ عن حقيقتهم.

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

إنهم قد أخذوا أنفسَهم بأسبابِ الفوز. إنهم الماضُونَ إليها بعزمٍ وثباتٍ، صابرين صادقين، قانتين مُنفقين، لا يصرفهم عن غايتهم ما يلاقُونه من سفاهة السفهاء، أو فتنة الحياة. بل تراهم - دائماً - يَفرُّون إلى الله، ويتوبون إليه، ويستغفرونه. يحذرون الآخرةَ، ويرجون رحمةَ ربِّهم.

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

روى مسلمٌ عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: « إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ

(١) آل عمران: ١٤ - ١٧.

إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ » (١)

عَرَفوا ذلك، فَأَنَارُوا ليلَهم بذِكْرِ ربِّهم، وأدركوا قيمةَ الوقت (وأنه العُمر) وأنهم مسئولونَ عنه، فكانت حياتُهم كُلُّها عبادةً لربِّهم، في صَحوهم ونومهم.

يتَّقُونَ الله إذا استيقظوا، ولا يَطْوُونَ صُدورَهم على غِلٍّ لأحدٍ أو حسدٍ.

ليلُهم غيرُ لاهٍ، وهم يلتمسون فيه ساعةَ الإجابة، ونهارُهم غيرُ عاطلٍ عن جدٍّ أو عمل صالح.

سَمِعوا من نبيِّهم ﷺ وهو يُخاطبهم « يا أَيُّهَا الناس، أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ » (٢)، فَسَارَعُوا إلى تحقيقِ ما سَمِعوا، وما فرَّطوا فيما يُقرِّبهم من مرضاتِ ربِّهم وطلبِ رحمته.

أخي المسلم: إنَّ المتَّقين ليسوا ملائكةً مُطهَّرين، بل هم بشرٌ يُخطئون، ولكنهم لا يُصِرُّون، ويتوبون ويستغفرون.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٣)

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، رقم ١٢٥٩.
(٢) ابن ماجة: باب ما جاء في قيام الليل، رقم ١٣٣٤.
(٣) آل عمران: ١٣٥، ١٣٦.

أخي المسلم: أَدِّ لكُلِّ شيءٍ حَقَّــهُ ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١)، وتَعَهَّد قلبَك، وحاسبْ نفسَك.

ولن تسلم - في زحمة الحياة - من تقصيرٍ أو نسيانٍ، فاستغفر ربَّك، وتُبْ إليه، والتمسْ ساعةَ الإجابة، ولا تكن من الغافلين.

في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « يَنْزِلُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » (٢)

فإن استطعتَ أن تكونَ مِمَّنْ يذكُرِ اللهَ في تلك الساعةِ، فكُــنْ.

* * *

(١) القصص: من الآية ٧٧.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم ١٠٧٧.

obeikandl.com

في كل كبد رطبة أجر

أخي المسلم:

لكُلِّ شيءٍ ما يدلُّ عليه. وإنَّ من دلائلِ سعادةِ الإنسان: رحمتُه بالخَلْقِ؛ فإن « الرَّحْمَةُ لا تُنْزَعُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ » (١)

روى الترمذيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. الرَّحِمُ شجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ (٢)، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ » (٣)

وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: « جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ ! فَمَا نُقَبِّلُهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ ؟** » (٤)

والرحمةُ التي أمَرَ الله بها لا تَخُصُّ بني الإنسان وحدَهم، **وإنما تشمل الإنسانَ** والحيوانَ، وتعُمُّ ولا تَخُصُّ.

في الحديث المُتَفَق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أن **رسول الله ﷺ قال:** « بَيْنَمَا

---

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم ١٨٤٦، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.
(٢) أصل الشِّجْنَة: عُرُوق الشَّجر الْمُشْتَبكَة، والشَّجن بِالتَّحْرِيكِ: وَاحد الشُّجُون وهي طُرُق الأَوْدِيَة، ومنْهُ قَوْلهمْ: " الْحديث ذُو شُجُون " أيْ يَدْخُل بَعْضه في بعْض. وقَوْله: "منْ الرَّحْمَن" أيْ أُخذ اسْمها منْ هذَا الاسْم، والْمعْنَى أَنَّهَا أَثَر منْ آثَار الرَّحْمة مُشْتَبكَة بِهَا؛ فَالْقَاطع لها مُنْقَطع منْ رحْمَة اللَّه.
(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم ١٨٤٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.
(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٥٣٩.

obeikandl.com

رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ [1] يَأْكُلُ الثَّرَى [2] مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ [3] » [4]

وفي روايةٍ « أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا [5] رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ [6] بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ [7] لِسَانَهُ مِنْ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا [8] فَغُفِرَ لَهَا » [9]

ومع ما نراه من الأجرِ في الرِّفْقِ والرحمة، نرى شدَّةَ العقوبةِ لِمَن نُزِعَتْ منه، فأهمَلَ الحيوانَ، أو أساءَ إليه، أو حَمَّلَهُ فوقَ طاقته. في الحديث الْمُتَّفق عليه، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: « دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ [10] الأَرْضِ » [11]

وفي روايةٍ: « عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لا

---

(1) اللَّهْث: هُوَ ارْتِفاعُ النَّفَسِ مِنْ الإِعْيَاء، والمعنى أَخْرَجَ لِسانه مِنْ الْعَطَش.
(2) يأكل الثرى: أَيْ يَلْعَق التُّراب النَّدِيّ.
(3) أيْ كُلّ كَبِد حيَّة، وَالْمُراد رُطُوبَة الْحَيَاة، أَوْ لأَنَّ الرُّطُوبَة لازِمَة لِلْحيَاةِ فَهُوَ كِنَايَة.
(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٥٥٥٠.
(5) البَغِيّ: هي الزَّانية.
(6) يطيف: أَيْ يَدُور حوْلها.
(7) أدْلَعَ لِسانه: أَيْ أَخْرَجهُ لِشِدَّة الْعَطَش.
(8) الموق: هُوَ الْخُفّ، فارِسِيّ مُعَرَّب.
(٩) مسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم ٤١٦٣.
(10) خَشاش الأَرْض: هوامّ الأَرْض وَحَشَرَاتها مِنْ فَأْرَة وَنَحْوها.
(١١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم ٣٠٧١.

هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ » [١]

أخي المسلم: إنما يَرْحَمُ اللهُ من عباده الرُّحَمَاء. فكُن رحيماً بِخَلْقِ الله، رفيقاً بهم؛ فـ « اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ » [٢]

وري أبو داود – بإسناد صحيح – عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: « أَرْدَفَنِي [٣] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ – وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ [٤] – قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتىً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: **أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ [٥] » [٦]**

إنَّ القلبَ الرَّحيمَ يأبى إلاَّ أن يواسيَ الضعيفَ، وأن يرحم ضَعْفَه، وأن يُغيث الملهوفَ، ويعمل على تفريج كَرْبه.

وإننا لنرى رسولَ الله ﷺ – في كثيرٍ من المواقف – يُنبِّهُ أصحابَه، ويُعلِّمُ

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يُقتلن في الحرم، رقم ٣٢٢٣.
(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم ٤٦٩٧.
(٣) أرْدفَني: أيْ حملَني خَلْفه على ظَهْر الدَّابَّة.
(٤) حائش النخل: نَخَلات مجتمعة.
(٥) تدئبه: تُتعبه بكثرة ما تستعمله.
(٦) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، رقم ٢١٨٦.

الإنسانيةَ – التي بُعِثَ رحمةً لها – أن تتراحَمَ فيما بينها، وأن لا تفجَعَ مخلوقاً، أو تسيء استعمال شيءٍ مِمَّا سخَّره الله لها.

روى أبو داود، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: « كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَرَةً [1] مَعَهَا فَرْخَانِ[2] فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ [3] فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا ؟! رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا. وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا، فَقَالَ: مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ ؟ قُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: إِنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ » [4]

وعَنْ سَهْلِ ابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً » [5]

أخي المسلم: تلك كلماتٌ من هدي النبوةِ ونورِها، يجب أن يذكر بها كُلُّ مسلمٍ أخاه، وأن يكون بارًّا رحيماً كما أمر الله؛ لتعُمَّ الرحمةُ التي أوجب الله أن تكون؛ فإن الله لا يرحَمُ من لا يرحم الناسَ، وإن الرحمةَ للكافة، ومن أجلها كان شَرْعه، وكانت بعثةُ نبيِّه ﷺ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [6]

---

(١) طَائِر صَغِير كَالْعُصْفُورِ.
(٢) الْفَرْخ ولد الطَّائِر.
(٣) أيْ تَرفرفتْ بِجَنَاحيْها وتَقرَّبتْ منْ الأَرْض.
(٤) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم ٢٣٠٠.
(٥) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، رقم ٢١٨٥.
(٦) الأنبياء: ١٠٧.

روى البخاريُّ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلاةٍ، وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ - وَهُوَ فِي الصَّلاةِ -: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا. فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ: لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا. يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ » (١)

وزاد الترمذيُّ: « فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ - أي الرجل - فِي الْمَسْجِدِ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَهْرِيقُوا (٢) عَلَيْهِ سَجْلاً (٣) مِنْ مَاءٍ، أَوْ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ » (٤)

* * *

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٥٥٥١.
(٢) أيْ صُبُّوا عَلَيْهِ.
(٣) هو الدَّلْوُ الممتلئ ماء.
(٤) الترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، رقم ١٣٧.

obeikandl.com

تجربة التاريخ

أخي المسلم:

إن تجربةَ التاريخ في حياة أُمَّتنا تُعلّمنا أن: الانحرافَ عن الدِّينِ الذي ارتضاه الله لنا، أو الإعراض عنه، يؤدِّي إلى الضعفِ والهوان، وتفريق الكلمة، وذَهابِ الريح. وأنَّ التمسُّكَ به، والحفاظَ عليه، يحفظُ الأُمَّةَ، ويصُونُ وحَدتها.

تجربةُ التاريخ تُعلّمنا أنَّ: أُمَّتنا الإسلامية مَا استطاعت أن تَنْصُرَ الله في معركةٍ إلاَّ حينما نَصَرَتْهُ في نفسها، بتغليب أمره على هواها. وما لم ننتصر بفضلنا، **لم نغلب بقوَّتنا.**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ (١)

تجربةُ التاريخ تُعلّمُنَا أنَّ: فترات الجَدِّ والعمل، والتفوّق - **في شتَّى** الميادين - كانت يومَ كان الدينُ - الذي ارتضاه الله لنا - هو **المُوَجِّهُ للنفوس، والباعثُ** لنهضتها. وأنَّ فترات الخمول والقعود والتخلُّف كانت يوم ضَعُفَ **الوازعُ** الديني في النفوس، فتسرَّبَت الرذائلُ، وفشَت الشهوات، وضَعُفَت الهِمم، وفتَرَت **العزائم.**

تجربةُ التاريخ تُعَلّمُنا: أننا كُنَّا أَعزَّةً يومَ كانَ الدِّينُ أعَزَّ **شيءٍ في حياتنا،** نُخضع لنصرته بأنفسنا وأموالنا، ولا نُخضعه لشيءٍ من مآربنا وشهواتنا.

تجربة التاريخ تعلمنا: أنَّ إصلاحَ النفوس هو السبيلُ لصلاحِ الأحوال، وأن فسادَها يُفْسِدُ ما صَلَح من أمر الحياة. والله ﷻ لا يُغَيِّرُ ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم.

---

(١) محمد: ٧.

وما التاريخ - في تجربته - إلاَّ بيانٌ لِمَا يقع من سُنَنِ الله في خَلقه. ومَن تدبَّر كتابَ الله، ووَعى سُنَّة نَبيِّه ﷺ عَرَفَ هذه السُنَن، وأدرك أنها لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، فالإيمان له آثاره ونتائجه، من: فوزٍ وعُلُوٍ، ونجاةٍ. وللذنوبِ عاقبتها، من: دمارٍ، وخسرانٍ، وهلاك.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (١)

وتجربةُ التاريخ تُرينا هذا وذاك. تُرينا ما تَمَّ للمؤمنين من فوزٍ ونصرٍ، وما وقع لأصحاب الآثام والذنوب من دمارٍ وخُسْرَان.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢)

ولقد أدرك سلفُنا الصالح هذه السُنن، فكانوا أخوفَ من المعاصي منهم من عدوِّهم، وكانوا يلتمسون نصرَ الله من نصره في نفوسهم، ويطلبون ما عند الله بطاعته، والاستقامة على دينه. وكانوا يحافظون على أُمَّتهم، ويحرصون على وَحدتها،

(١) آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩.
(٢) الأنفال: ٥٢ - ٥٤.

بتقديم النُّصح الخالص، وهم يحفظون عن نبيِّهم ﷺ: « الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » (١)

فقامُوا بواجبهم في النُّصح لله، بإخلاص العبادة، وصدق النيَّة في طاعته.

ونصحوا لكتابه بالإيمان به، والعمل بما جاء فيه.

ونصحوا لرسوله بصدق اتِّباعه، ونُصرته، والإيمان بما دعى إليه.

ونصحوا لأئمة المسلمين وعامَّتهم بإرشادهم بما يُصلِحُ أمرَ دُنياهم وآخرتهم.

فحفظ التاريخُ عنهم، وقدَّم للإنسانية دروساً حيَّةً عن حياتهم، وما حقَّقوه بفضل ربِّهم.

وتجربة التاريخ تُعلِّمنا أن: صُعودَ الأُمم وهبوطَها منوطٌ بتصحيح أمرِ الإنسان فيها؛ فإنَّ به، وعليه، ومن أجله تقومُ الحضارة، ويرتفع البناء.

وبالإيمان الصحيح يصح الإنسان، وبالاستقامة على دين الله يعمل ويَجِدُّ ويبني في شتَّى الميادين، وبغير ذلك يهدم، ويسوق الفناءَ إلى ما شيَّد من بناء.

فهل تعي أُمَّتُنا تجربةَ التاريخ، وتأخُذ العِبْرَةَ بما يحفظ سُنَن الله في خَلقه ؟

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٨٢.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

ترابط المسلمين

بين دوافع الإيمان ونوازع الشهوات

أخي المسلم:

الأمةُ الإسلاميةُ أمةٌ واحدةٌ. تقوم وَحْدتها على أساسٍ من الإيمان والاستقامة، ومَثَلُها في توادِّها وتعاطفها وتراحمها، كَمَثَلِ الجسد الواحد، كما قال الرسول ﷺ.

والجسدُ كائنٌ حيٌّ تترابط أعضاؤه، وتتعاون في اتِّساقٍ فطرىٍّ، **يُؤدِّي** كُلُّ عضوٍ واجبَه متعاوناً مع سائر الأعضاء، متأثِّراً بما يُصيبه من شكايةٍ وألمٍ.

روى مسلمٌ، عن النعمانِ بن بشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » (١)

بدافعٍ من الإيمان تقومُ الأخوَّةُ، وتتحقّقُ المناصرةُ.

فالإيمان دافعٌ ومانعٌ: (دافعٌ) لفعلِ الخيرِ بلا مَنٍّ أو أذىً (ومانعٌ) من الإثم والعدوان؛ بما يُحقّقه من حُسن الاستجابة لله وللرسول، فيما أُمِرْنا به أو نُهينا عنه.

والله ﷻ يأمُرنا بكُلِّ ما من شأنه أن يُحقّقَ حُسنَ الصلةِ والمودَّة، ويقوِّي أواصرَ الأخوة. وينهانا عن كُلِّ ما من شأنه أن يُثير الشحناءَ والبغضاء، ويُوقع التنازع والفُرقة.

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٥٥٥٢.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝ ﴾ (١)

والرسول ﷺ يأمرنا بما يحفظُ لأخوةِ الإيمان مكانتها، ويعصمها من نوازع الهوى، ونزغات الشياطين.

روى مسلمٌ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ » (٢)

إنَّ الأخوة التي تقوم على أساسٍ من الإيمان بالله والحبِّ فيه، تُثمرُ ثمارَها في دُنيا الناس: بِرًّا وصِلَةً، وعند الله مغفرةٌ ورحمةٌ.

روى مسلمٌ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ (٣) اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ (٤) مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا (٥) ؟ قَالَ: لا.

---

(١) الحجرات: ١١، ١٢.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٨١.

(٣) أي: أقعده يرقبه.

(٤) المدرجة: هي الطريق، سُمِّيتْ بذلك لأنّ النّاس يدرُجون عليها، أيْ: يمضُون ويمشُون.

(٥) أيْ تقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذلك.

غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَجَّلَ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ [1] كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » [2]

وروى أحمدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ، قَالَ اللَّهُ عَجَّلَ: طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلاً » [3]

أخي المسلم: الإيمانُ هو الأصلُ في تحقيقِ الروابط، وأُلفةِ القلوب ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [4]

وتلكَ مِنَّةُ الله على المؤمنين وهو يأمرهم بالاعتصام بحبلِ الله، ويدعوهم إلى الوحدة وعدم التفرُّق.

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [5]

إن روابط المسلمين تقوى بقوَّةِ الإيمان والعملِ بمقتضاه، وإن التجارب المريرة في حياة

---

(١) قالَ الْعُلَماء: محبَّة اللَّه عَبْده هِيَ رَحْمته لَهُ , ورِضاهُ عنْهُ , وإرادته لَهُ الْخَيْر , وأنْ يفْعل بِهِ فعْل الْمُحبّ منْ الْخيْر.

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم ٤٦٥٦.

(٣) أحمد: باقي مسند المكثرين، رقم ٨١٨٠.

(٤) الأنفال: ٦٢، ٦٣.

(٥) آل عمران: ١٠٣.

أُمَّتنا تَحُثّنا - جميعاً - أن نتَّبع الصراطَ المستقيم، وأن نتجنب السُّبُل. تَحُثُّنا أن نُخضعَ النفوسَ لمرضاةِ الله، وأن نُجنبها الخضوعَ للأهواء والشهوات والشعارات المُنافية لدينِ الله.

إنَّ التجاربَ المريرة - في واقعِ أُمَّتنا - تهيب بنا أن نفرَ جميعاً إلى الله، طائعين مستجيبين لما يدعونا له؛ فإنَّ الأمرَ جدٌّ لاَ هَزْلَ فيه؛ فقد رأينا ما جَنَتْهُ الفُرقة، وما حقَّقه التنازعُ من نَصْرٍ لأعدائنا، وهزيمةٍ لأنفُسنا.

إننا بفُرقتنا نكونُ عوناً لأعدائنا، وخذلاناً لأنفسنا. ولن ننصر قضايَانا إلاَّ بانتصار الدِّينِ في حياتنا وفي أنفسنا. إنكَ لن تنصر الله في معركةٍ حتى تنصره في نفسك، بتغليب أمره على هواك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ (١)

فهل يعي كُلُّ مسلمٍ ما يجب أن يكونَ؛ لإنقاذ أنفسنا من هوانِ الدنيا وعذابِ الآخرة ؟

أرجو الله أن يوفِّقنا جميعاً للإخلاص له، وحُسْنِ التوجُّه إليه؛ إنه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير.

* * *

(١) محمد: ٧.

حديث يجب أن يُتدبَّر

أخي المسلم:

روى البخاريُّ، عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عن النبي ﷺ قال: « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا [١] عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا » [٢]

هذا الحديثُ الشريفُ يحتاج منَّا – نحن المسلمين – في واقعنا المعاصر إلى حُسْن تدبُّرٍ لما فيه، من دعوةٍ إلى تماسك الأمة الإسلامية، وتناصحها، وقيامها بما أوجب الله عليها، من الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهذا المَثَل – الذي ضُرِبَ لتناصُح المسلمين، وترابطهم، وقيامهم بما يحفظ سلامتهم – فيه من حُسْن البيان ما يجعل المتدبِّرَ يرى ما يؤدِّي إليه التناصحُ والأخذُ على يد الظالم أو المفسِد، من صلاحٍ ونجاةٍ للمسلمين جميعاً، وما يؤدِّي إليه تركُ الظالم أو المفسد – دون أخذٍ على يده – من دمارٍ وهلاكٍ.

فقد شبَّه الرسولُ ﷺ أمرَنا جميعاً بالراكبين في سفينةٍ واحدة، بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلها. وهكذا أحوال الناس في دُنياهم. تتفاوت مكانتهم ومعيشتهم.

---

(١) أي اقترعوها ، فأخذ كلَّ واحد منهُمْ سهمًا أي نصيبًا من السفينة بالقُرْعة.
(٢) البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيها، رقم ٢٣١٣.

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

ولكنّ سفينةً واحدةً تجمعهم، وتمضي بهم في خضمّ الحياة. فلا بُدَّ لهم جميعاً من التعاون على رعايتها، والحفاظ على سلامتها، وعدم الإفساد فيها. فليس من حقّ أحد منهم أن يقول: هذا موضعي، أفعل فيه ما أشاء. كذلك ليس من حقّ مسلم أن يخرق في حياة المسلمين خرقاً يودي بهم.

وواجب المسلمين جميعاً أن يُقدِّموا النُّصْحَ، وأن يأخذوا على يد مَن يُفسد، أو يسيء. وإن لم يفعلوا عمَّت النكبةُ، ووقعت الفتنة.

ولا شيء يُدمّر حياة الأمم كالمعاصي والذنوب. ولا شيء يُذهبُ ريحها كالفُرقة والتنازع. فإذا لم تتناصح الأُمّة فيما بينها وقعَ فيها ما يُضعف شأنها، ويُذهب ريحها، ونالها من عقاب الله ما تستحق، وحيل بينها وبين ما ترجو ونطلب.

روى الترمذيُّ عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ » (٢)

وقد روى أبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ، عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « يا أيُّهَا النّاسُ، إنَّكُمْ تَقْرَءونَ هَذه الآيةَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ... الآية ﴾ (٣)، وإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إنّ النّاسَ اذا

---

(١) الزخرف: من الآية ٣٢.

(٢) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٢٠٩٥، وقال: هذا حديث حسن.

(٣) المائدة: من الآية ١٠٥.

رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ » (١)

أخي المسلم: أرأيتَ ما يدعونا إليه رسولُنا ﷺ ويأمرنا به. معصية الواحد منَّا تُسيء إلى غيره إنْ تُرِكَت دونَ حَسْمٍ أو علاجٍ، وليس من حقِّ مسلمٍ أن يُجاهرَ بمعصيةٍ أو يجهرَ بفساد. ولاَ عِبْرَةَ بما يُقال من: أنَّنا نَخْرِق في نصيبنا خَرْقًا، وأننا أحرارٌ فيما نفعل « فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »

أرأيتَ أن كُلَّ مسلمٍ مطالَبٌ بأن يُخضع هواه لما جاء به نبيُّه؛ فإن اتِّباعَ الهوى مُفْسِدٌ مُضِلٌّ. ولن نستطيع أن ننصر الله في معركة حتى ننصره في أنفسنا بتغليب أمره على هوانا. وإن تنازعنا في شيءٍ فعلينا أن نَرُدَّه إلى الله والرسول؛ استجابة لأمر ربِّنا: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ (٢)

أخي المسلم: إن سُنَنَ الله لا تُجامِلُ أحداً ولا تُحابي بشراً، وما عند الله لا يُطلَبُ إلاَّ بطاعته ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ ﴾ (٣)

---

(١) الترمذي: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يُغير المنكر، رقم ٢٠٩٤، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.
(٢) النساء: ٥٩
(٣) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

ثبات وحكمة في مواجهة الأحداث

أخي المسلم:

لا يُترَك الناسُ في الحياة لِمَا يُعلنون من شعاراتٍ، بل لا بُدَّ من فتنةٍ واختبارٍ؛ ليتبيَّن الصادق من الكاذب، وتتميَّز الصفوفُ، وتُعرَف مواقفُ الناس عند الشدائد.

وتلك سُنَّةُ الله في خَلْقه.

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (١)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١ ﴾ (٢)

بين الشدة والرَّخاء، والسَّراء والضَّراء تُعْرَفُ مواقفُ الناس، وتصفو معادنُهم، وبهذا يمتحن اللهُ عبادَه ويختبرهم، وهو أعلمُ بهم، وبهذا تتحقَّق حكمةُ الخَلق، ويتحقَّق الجزاء.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (٣)

وأُمَّتُنا الإسلامية - في تاريخها الممتَد - قد مرَّت، وتَمُرُّ بأحداثٍ جسامٍ، وعليها أن تُواجه الأحداثَ في حكمةٍ وثباتٍ، وأن تأخذ من ماضيها عِبرةً لحاضرها.

---

(١) العنكبوت: ١- ٣.

(٢) محمد: ٣١.

(٣) الملك: ١، ٢.

ومن الأسوة بنبيِّها ﷺ ما يُحقِّقُ لها الثباتَ في مواجهة المخاطر والشدائد.

لقد حُوصِرَت مدينةُ رسول الله ﷺ في عهده حصاراً شديداً، وجاءها جنودٌ ساقَهَا الكيدُ والحقدُ، وحزَّبها اليهودُ لحرب رسول الله ﷺ، ونقضت قريظةُ عهدَها وغدرت، فَعَظُمَ البلاءُ، واشتدَّ الكَرْبُ، وجاء العدوُّ من كُلِّ جانبٍ، واجتمع الشركُ والكفرُ في عَدَدٍ وعُدَّةٍ.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾ (١)

فلمَّا اشتدَّ البلاءُ على المسلمين، بَعَثَ رسولُ الله ﷺ إلى عُيَيْنَة بْن حِصْنٍ وَإِلَى الْحَارِث بْنِ عَوْفٍ - وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ - فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ. فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصُّلْحُ حَتَّى كَتَبُوا الْكِتَابَ، وَلَمْ تَقَعْ الشَّهَادَةُ وَلَا عَزِيمَةُ الصُّلْحِ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ، بَعَثَ إلَى سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ. فَقَالَا لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ ؟ أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ الْعَمَلِ بِهِ ؟ أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ قَالَ: بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاَللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إلَّا لِأَنِّي رَأَيْت الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْت أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إلَى أَمْرٍ مَا: فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاَللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ. وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ثَمَرَةً إلَّا

(١) الأحزاب: ١٠، ١١.

قِرَى أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالإِسْلامِ، وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ؟! وَاللَّهِ، مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ. وَاللَّهِ، لا نُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَنْتَ وَذَاكَ. (١)

حكمةٌ وثباتٌ يتعلَّمُهما المسلمُ من دِينه وهو يواجه الشدائد.

ثباتٌ على الحقِّ، واعتصامٌ بحبل الله، ويقينٌ بوعده، وحكمةٌ في علاج الموقف ومواجهته بما يستحق.

والمسلمون اليومَ - وهم يُواجهون من الشدائد والمِحَنِ ما يواجهون، ويتكالب عليهم أعداءُ الله من كُلِّ جانب - عليهم أن يأخذوا من ماضيهم لحاضرهم، وأن يعلموا ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وصحابته وهم يواجهون أشدَّ المواقف وأخطرها.

كانوا كما ذكر الله ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

ثباتٌ على الإيمانِ والصدقِ مع الله، وحكمةٌ في النظرِ إلى الأحداث، ومعالجتها بما يستحقُّ من العزم، والثقة في الله، والأخذ بالأسباب، وبتوحيد الصفِّ لإعلاء كلمة الله، وإيجاد الإنسان الصحيح الذي يعرف دِينَه وعصره.

---

(١) البداية والنهاية: ٤/١٠٥.

(٢) الأحزاب: ٢٢، ٢٣.

عندئذ يُرَدُّ كيدُ أعدائنا جميعاً كما ردَّ الله كيدَهم من قبل.

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) الأحزاب: ٢٥- ٢٧.

obeikandl.com

ولا تهنوا ولا تحزنوا

أخي المسلم:

من المُسَلَّمِ به أنَّ الإنسانَ يعيشُ في هذه الحياة الدنيا عُمراً مَحدوداً ثم يرحَلُ، وأن هذا العُمرَ المحدود بيَدِ الله، لا يعلمه أحدٌ سواه.

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

ومع تفاوت الأعمار والآجال فإنَ أحداً لا يفلت من الموت، ولا يَفِرُّ منه.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

الأمرُ كُلُّه بيد الله. يجيء الإنسانُ إلى الدنيا بأمره، ويخرجُ منها بأمره، ولا علمَ للإنسانِ بساعة مجيءٍ أو رحيل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٣)

هذا الاعتقاد الواضح البيِّن يُحقِّقُ تصوُّراً كُلِّيًّا يتحدَّد معه سلوكُ الإنسان،

---

(١) لقمان: من الآية ٣٤.
(٢) الأنبياء: ٣٤، ٣٥.
(٣) غافر: ٦٧، ٦٨.

ويستقيمُ سعيه.

ومن أوّل نزول القرآن نرى هذا التحديد الواضح لأمر الإنسان من بدايته إلى نهايته.

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ ﴾(١)

عُمُرٌ محدودٌ، وعودةٌ إلى الله ورجوعٌ إليه. بل وحسابٌ بين يديه على ما وقع في هذا العمر المحدود.

وتلك حقيقةٌ كبيرة وخطيرة، قد يغفل عنها الإنسانُ في زحمة الحياة، مع أنها ذات تأثير بالغ في دُنياه وفي آخرته. وعليها يتوقّفُ أمنُه ومصيرُه.

والذين يتصوّرون أن أيّ سلوك للإنسان بمعزلٍ عن تصوّرٍ واعتقاد، يُخطئون كثيراً في معرفة الإنسان؛ فإن الاعتقاد - على أيّ صورةٍ كان - هو من وراء العمل الإنساني والسلوك البشري كلّه.

من هنا كان من رحمة الله بالإنسان أن يُبطلَ الباطل، وأن يُحقّ الحقّ بالوحي المنزّل في أمر العقيدة وما يرتبط بها ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾(٢)

إن الله ﷻ لم يترك الناسَ دون بيان لما يُصلح أحوالهم من أمور الغيب والشهادة.

---

(١) العلق: ١- ٨.

(٢) الأنفال: من الآية ٤٢.

Obeikandi.com

وجعل بيانه هدى للناس، وسمّاه (ذكراً) و (هدىً) و (موعظةً)، وأمضى سُنّته في الناس على مقتضاه، فمن اتبع هُداه نجا وفاز، ومن كذّب وأعرض هلك وخسر.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (١)

مضت سُنّة الله على ذلك، وجاء بيانه وفقاً للحُجّة والمعذرة؛ لئلا يكون للناس على الله حُجّة، وتتابع الرسلُ مبشرين ومنذرين بهذا البيان الذي خُتم بكتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (٢)

بهذا البيان الحقّ، والقول الصادق.. هذه المعالم النيّرة الواضحة يمكن أن يعرف الناس - في كلّ مكان وزمان - على أسباب صعودهم أو انحدارهم، وأن يتعرّفوا على ذلك من بيّناتهم وأعمالهم.

---

(١) آل عمران: ١٣٧، ١٣٩.
(٢) طه: ١٢٣ - ١٢٧.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

فإن سُنَنَ الله في خَلقه لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

ونحن المسلمين كغيرنا من الناس تمضي فينا سُنَنُ الله بلا محاباةٍ، ويكون صعودنا أو انحدارنا خاضعاً لسُنَّة الله في خَلقه.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٣)، ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٤)

ومن الإنصاف في تقدير الأمور أن نعودَ - دائماً - إلى أنفسنا؛ لنعرف ما فيها من صدق نيَّة وإخلاص، فإن ذنوبَ الناس أخوفُ عليهم من عدوِّهم، وما لم نُنْصَر بفضلنا لم نغلب بقوَّتنا.

فلا بُدَّ أن نتعرَّفَ على طاعة الله ورسوله في سلوكنا الفردي والجماعي، وأن

---

(١) الأنفال: ٥٣.
(٢) فاطر: من الآية ٤٣.
(٣) طه: ١٢٤.
(٤) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

نتّقي الله في روابطنا وفي أخواتنا؛ فإن الأعداء لن يستطيعوا أن يفعلوا بنا شيئاً إلاّ بما نُحققه نحنُ لهم فيما بيننا من فرقة أو اتباع، عندئذٍ يربحون بلا كيدٍ، وينتصرون بلا جهد، ويضعف شأنُ المتنازعين، ويذهب ريحُهم.

ويبقى دينُ الله معراجاً لمن أراد الصعود، ونُوراً يهدي به الله من يشاء.

عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « إنَّ اللَّهَ زَوَى [1] لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ [2]، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ [3]، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ [4]، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » [5]

أخي المسلم: وإذا كانت الأمة الإسلامية قد تخلّفت زمناً في مجالات متعددة، فإنّ جميع ما تنشده لا يتحقّقُ إلاّ بصدق الإيمان؛ فبِهِ - وحده - تقوى العزائم، ويستقيم السلوك من الانحرافات الضّارة، والشهوات المدمِّرة، وتصان وحدةُ الأمة من الفُرقة، وينطوي ظلامُ الشعارات المُنافية لدين الله، ويمضي ركبُ المسلمين - في خِضَمِّ الحياة - موحِّداً يعبدُ الله ولا يشرك به شيئاً ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [6]

---

(١) زوي: أي جُمِع.

(٢) قال العُلماء: المُراد بالكنزيْن الذهب والفضّة، والمُراد كنزيْ كِسْرى وقيْصر ملكيْ العِراق والشام

(٣) أيْ لا أُهْلكهُمْ بقحْط يعُمّهُمْ، بلْ إنْ وقع قحْط فيكُون في ناحية يسيرة بالنسْبة إلى باقي بِلاد الإسْلام

(٤) بيْضتهمْ: أيْ جماعتهمْ وأصْلهمْ، والبيْضة - أيْضًا - العِزّ والمُلْك.

(٥) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم ٥١٤٤.

(٦) آل عمران: من الآية ١٠١.

مجاهدة النفس

أخي المسلم:

مجاهدةُ النفس أمرٌ لا بُدَّ منه؛ لاعتدال النفس واستقامتها. فالنفسُ تهوى ما تُحبُّ وقد يكون شرًّا لها ! وتنفر ممَّا تكره وقد يكون خيراً لها !

وميزانُ الخير للإنسان ليس فيما يُحبُّ أو يكره، وإنما الخيرُ فيما شرع الله له؛ فقد يُدْعَى الإنسانُ إلى ما يكره وفيه الخير له، ويُمنَعُ مما يحب.

والله وحده الذي يعلم، والناس لا يعلمون.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (١)

وكَم من أمرٍ يحرص الإنسانُ عليه وفيه حَتْفُه، وكم من أمرٍ ينفرُ منه وفيه خيرُه، وكم لله من مِنَّةٍ في طيِّ المكاره !

لذا وجبَ على الإنسان أن يجاهد نفسَه بإخضاع هواها لشرع الله، وتبصرها بالعواقب، وردِّها عن كثيرٍ من الرغائب.

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها، وإن تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنع.

يجب على الإنسان أن يجاهد نفسه؛ حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » (٢)

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) فيض القدير: ٥/٢٧٥، وقال: خرّجه الحسنُ بن سفيان وغيرُه. وقال ابن حجر: ورجالسه ثقـات. وصحّحه النووي في الأربعين.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (٢) فعلى الإنسان أن يقفَ منها موقفَ المخالف لهواها؛ فإن اتِّبـــاع الهوى مُضِلٌّ مُهْلِكٌ، وقد حذَّر الله منه، ونهى أولياءَه عن اتِّباعه فقال: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

إنَّ قضية الامتحان - امتحان الإنسان في فترةِ عمره - تستوجبُ مراقبةَ النفس ومجاهدتها؛ حتى تأخذ من كُلِّ شيءٍ خيره، وتُجيب الإجابةَ الصحيحةَ التي تُحقِّقُ لها الفوزَ والنجاة.

وخيرُ النعمة في الشكر، وخير البلاء في الاحتساب والصبر.

وأعراضُ الحياة - مهما عَظُمَت في أعين الناس - فإنها ذاهبةٌ فانيةٌ. والعاقل من لا يُشغَل بفانٍ عن باقٍ، أو تُلهيه الرغائبُ عن العواقب، فيركن إلى الدنيا وينسى آخرته، ويُحبُّ العاجلةَ ويَذَر الآخرة.

إنَّ مجاهدة النفس تستوجبُ الاعتدالَ في غير إفراطٍ أو تفريط، كما تستوجب

---

(١) آل عمران: ٣١.
(٢) يوسف: من الآية ٥٣.
(٣) ص: ٢٦.

الصبرَ والصدق.

الصبرُ الذي يصون النفسَ، ويحفظها من التردِّي والسقوط.

والصدقَ الذي يُبعدها عن الخديعة والأماني، والوقوع فيما يُزيِّنه الشيطان.

مجاهدةُ النفس تستلزم مصاحبةَ القرآن؛ ليطمئن القلبُ بذكر الله، ويمضي - بعون الله - على بصيرةٍ ومعرفةٍ إلى التي هي أقوم.

مجاهدةُ النفس تستلزمُ اتِّباعَ سبيل المؤمنين، واتخاذ الرفقة الصالحة التي تُعين على طاعة الله، وتُبصِّرُ بما يجب أن يكون.

مجاهدةُ النفس تستلزم ألاَّ يعيش الإنسانُ خادماً لحظوظها، خادعاً لها، بتحقيق العاجل من مآربها، والظفر بما تحب بأيِّ سبب، ومن أيِّ طريق، بدون نظرٍ إلى حلالٍ أو حرام.

مجاهدةُ النفس تستلزم إدانتها، ومعرفة عيوبها، وتقويم معوجها.

تستلزمُ مراقبة إخلاصها لربِّها في جميع أحوالها؛ حتى لا تعمل عملاً لأُخراها تطلب به دُنياها؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلاَّ ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: إننا - في كُلِّ لحظةٍ تمضي - نقتربُ من الآخرة، ونبتعدُ عن الدنيا. فالدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب، وساعٍ بينهما كُلَّما اقتربَ من أحدهما بَعُدَ عن

(١) الكهف: من الآية ١١٠.

الآخر، ونفس الإنسان خُطَاه إلى أجله.

فَزِن أمورَك كُلَّها بالميزان الصادق الذي يعطي كُلَّ شيء حقَّه دون جَورٍ أو انحراف، عِشْ في دنياك بفضائلك وإيمانك، وطاعتك لربِّك، واعمل فيها بسعي الآخرة؛ فإن سعي الآخرة ظُهْرٌ لدُنياك، وفوزٌ في آخرتك، واحذر أن تُفتَن بشيءٍ من زينة الحياة؛ فإنها لا تبقى ولا تدوم، وإن أردت حياةً طيبةً في دُنياك، وفوزاً برضوان الله في أُخراك (فذاك هو الطريق)..

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [1]

نسألُ الله تعالى أن يجعلنا جميعاً منهم.

* * *

(١) المؤمنون: ٥٨ - ٦١.

كُلُّ الناس يَغْدُو

أخي المسلم:

الناس غاديان: فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا.

فكُلُّ إنسانٍ إمَّا: ساعٍ في هلاكِ نفسه، أو في فِكاكِها.

فمَن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله، وأعتقها من عذابه. ومَن سعى في معصيته فقد باعَ نفسَه بالهوان، وأوْبَقَهَا بالذنوبِ الموجبة لغضبِ الله وعذابه.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ (١)

﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥ ﴾ (٢)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧ ﴾ (٣)

روى البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ. يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ. لا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا » (٤)

---

(١) الشمس: ٩، ١٠.

(٢) الزمر: ١٥.

(٣) البقرة: ٢٠٧

(٤) البخاري: كتاب المناقب: باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، رقم ٣٢٦٤.

وروى مسلمٌ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [1] دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ؛ فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا [2] » [3]

نجاةٌ أو هلاكٌ، فلاحٌ أو خُسرانٌ. فما هو السبيلُ لإعتاقِ النفس من عذاب الله ؟

فلنَمْضَ مع الحديث الشريف الذي تَضَمَّن هذا البيان « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو »؛ لنرى الطريقَ ونسلكه مع الناجين، بفضل الله ورحمته.

روى مسلمٌ في صحيحه عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآَنِ – أَوْ تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا » [4]

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) يعني: أصلها بمعروفها. والبلُّ هو: الترطيب والتنديه بالمعروف، وشبَّه – عليه السلام – صلة الرَّحم بالمعروف بالشيء اليابس يندى فيرطب، وذلك أن العرب تصف الرجل إذا وصفته باللؤم بجمود الكف فتقول: ما تندَّى كفُّه بخير، وأنه لحجر صلد، يعني لا يُرجَى نائله، ولا يُطمَعُ في معروفه، كما لا يُرجى من الحجر الصلد ما يشرب، فإذا وصل الرجل رحمهُ بمعروفه، قالوا: بلَّ رحمه بلاً وبلالا.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين، رقم ٣٠٣.

(٤) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٣٢٨.

أرأيتَ الطريقَ إلى النجاة ؟

إنه التوحيد الخالص، والطهارة للصلاة؛ فإن كُلاًّ من الصلاة والوضوء مُوجبٌ لفتح أبواب الجنة، كما في صحيح مسلم، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ - مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ - إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » (١)

إنه التوحيد والطهارة للصلاة؛ فإنها نورٌ. لهذا كانت قُرَّةَ عينِ المُتَّقين، كما كان النبي ﷺ يقول: «... وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ » (٢)

وفي المسند عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ « أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاةَ يَوْمًا فَقَالَ: مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ » (٣)

والصَّدَقَةُ؛ فإنَّ مَن أدَّاها طيبةً بها نفسُه كانت برهاناً على صِدْقِ إيمانه، ووجد جزاءَ ما قدَّم عند ربِّه ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ (٤)

وكُلُّ ما أُمِرَ به المسلمُ أو نُهي عنه يحتاج إلى الصبرِ؛ للقيام أو الكَفِّ عنه.

والصبرُ ضياء. والضياء هو النورُ الذي يحصل فيه نوع حرارةٍ وإحراق. ولذا وُصِفَ الصبرُ به؛ لأنه شاقٌّ على النفوس، يحتاج إلى مجاهدةِ النفس، وحَبْسِها عمَّا تهواه.

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم ٣٤٥.

(٢) أحمد: باقي مسند المكثرين، رقم ١٣٥٢٦.

(٣) أحمد: مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، رقم ٦٢٨٨.

(٤) آل عمران: من الآية ٣٠.

وللصابرين أجرُهم وجزاؤهم عند ربِّهم.

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

توحيدٌ خالص، وطُهْرٌ، وصلاةٌ، وصَدَقةٌ، وصَبْرٌ على كُلِّ ما أمر الله به، وعن كل ما نهى عنه، يؤدِّي إلى الفوزِ والفلاح.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢)

نَجَاةٌ أو هلاكٌ. فلاحٌ أو خُسران. وهذا طريق النجاة والفلاح يُحدِّده القرآن، ويُحذِّرُ من السُّبُل المؤدِّية إلى الدَّمار والهلاك « وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ »

عن النَّوَّاس بْن سَمْعَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا» (٣)

وقال ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « القرآن شافعٌ مُشفَّعٌ، وحاملٌ مُصدَّقٌ. فمَن جعله أَمامَهُ قَادَهُ إلى الجنة، ومَن جعله خَلْفَ ظَهْرِهِ قادَهُ إلى النار » (٤)

---

(١) الزمر: من الآية ١٠.

(٢) الرعد: ٢٢-٢٤

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح ابن حبان: ١/٣٣١، رقم ١٢٤، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده جيد.

وقال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « إن هذا القرآنَ كائنٌ لكم أجراً، وكائن عليكم وِزراً، فاتبعوا القرآنَ، ولا يتبعكم القرآن؛ فإن من اتَّبع القرآنَ هبط على رياضِ الجنة، ومَن تبعه القرآنُ زجَّ في قَفاه، فقذفه في النار » (١)

طريقُ النجاة مستقيمٌ، بَيِّنٌ واضحٌ. وسُبُل الهلاك ملتوِيةٌ متعددة. واتِّباع ما به الرسول ﷺ هو النجاةُ، واتِّباع السُّبُل المتعددة هو الهلاكُ والدمار.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٢)

قَالَ ﷺ: « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى »(٣)

أخي المسلم: لا تُشغلك الرغائبُ عن العواقب، ولا تركَن إلى العاجلة وتنسى الآخرة ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤)

---

(١) شعب الإيمان: ٢/٣٥٤، رقم ٢٠٢٣.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) البخاري: كتاب الاعتصام بالقرآن والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، رقم ٦٧٣٧.

(٤) الحديد: ٢٠، ٢١.

إنما الدنيا لأربعةِ نفر

أخي المسلم:

روى الترمذيُّ، عن أَبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ. قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ **مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ اللَّهُ** عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا. وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: **إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ**: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ **لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا**. فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ **يَقُولُ: لَوْ أَنَّ** لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ **اللَّهُ مَالاً**، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلا يَعْلَمُ **لِلَّهِ فِيهِ** حَقًّا. فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: **لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ** فِيهِ بِعَمَلِ فُلانٍ، **فَهُوَ** بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ »[1]

فلتنظر - أخي المسلم - من أيِّ نَفَرٍ أنتَ. ولتعلم **أنك مُحاسَب عمَّا أعطيت**: من أينَ اكتسبتَ ؟ وفيمَ أنفقتَ ؟

﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾** ﴾[2]

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم ٢٢٤٧، وقال: هـذا حـديثٌ حسن صحيح.

(٢) آل عمران: ٣٠.

obeikandi.com

« لا يَنْقُصُ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ » (١)

فلنُدرك هذه الحقيقةَ، ولنُعوِّد النفسَ على الجُود، ولنقيها الشُّحَّ ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

وفي الحديث المُتَّفق عليه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٣)

وروى مسلمٌ عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » (٤)

إن الإنسانَ يُمتَحَن بالمال كما يُمتَحَن بغيره ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٥)، وكلُّ امتحانٍ له زمنٌ، وما يُقبَلُ في وقتٍ لا يُقبَلُ في غيره ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٦)

---

(١) أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث عبد الرحمن بن عوف الزهري رضي الله عنه رقم ١٥٨٤.
(٢) الحشر: من الآية ٩.
(٣) البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، رقم ١٣٥١.
(٤) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٧٥.
(٥) الأنبياء: من الآية ٣٥.
(٦) المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

ومن قَدَّر العواقبَ لم تفتنْه الرغائبُ، فليُحاسب كُلٌّ منَّا نفسَه قبل أن يُحاسَب. هل اتَّقى ربَّه، ووَصَلَ رَحِمَه، وعَرَفَ حَقَّ الله فيما أعطاه ؟ أمْ فُتِنَ بما أُنْعِمَ عليه، وشُغِلَ بيومه، ونسي غَدَه ؟

إن منـــزِلَته حيثُ يضع نفسَه. فهو بأفضل المنازل إن اتَّقى ربَّه، وَوَصَلَ رَحِمَهُ، وعرف حقَّ الله عليه. وهو بأخبثها إن هُوَ رُزِقَ بمال، وأخذ يخبِطُ فيه بغيرِ علمٍ، لا يتَّقي ربَّه، ولا يَصِلُ رَحِمَهُ، ولا يعلَمُ لله فيه حقًّا.

وكم من ناسٍ شغلتهم الحياةُ عن أنفسهم، فآثروا دُنياهم واطمأنوا إليها، فهلكوا مع الهالكين.. والسعيدُ مَن خاف مقامَ ربِّه، ونهى النفسَ عن الهوى، وآثَرَ ما يبقى، وقدَّم لنفسه وهو يحذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وقد يُخطئ الناسُ فيظنون أن ما بأيديهم دلالةُ إكرامٍ، ويَنْسَون أنه امتحان يكون بالقبض وبالبسط، وبالعُسر وباليُسر، وبالشدة والرخاء، وبالبأساء والضَّراء. وإكرامُ الإنسان في إجابته، ونجاحُه في شُكره وصبره وإيمانه بربِّه.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ

(١) النازعات: ٣٧ - ٤١.

أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝﴾ [1]

أخي المسلم: فلتكُن مُدْرِكاً نعمةَ ربِّك، وليكن دعاؤك دائماً « اللهُمَّ لا تفتنِّي بما أنعمتَ به عليَّ »، واحذَرْ هوى النفس ومُحبطات الأعمال من شركٍ ظاهرٍ وخفيٍّ. وليكُن لك مع نفسك حسابٌ، وليشغلك عيبُك عن عَيْبِ الناس، وليكُن سعيُك لمرضات ربِّك.

والله في عَوْنِك ما دُمْتَ في عَوْنِ أخيك.

أسألُ اللهَ لي ولكَ وللمسلمين جميعاً الهدايةَ والتوفيق.

* * *

(١) المؤمنون: ٥٥ - ٦١.

obeikandl.com

الظلم ظلمات

أخي المسلم:

تطيبُ حياةُ الناس بقيامِ العدل بينهم، وتصفو نفوسُهم برعايةِ الحقوق وأدائها. ولم أرَ شيئاً يصونُ الأممَ من الدمار، ويحفظها من الهلاك، كرعاية الحقِّ، وقيامِ العدل.

إن الله ﷻ قد أرسلَ الرسلَ بالبيِّنات، وأرسل معهم الكتابَ والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وفي الحديث القدسي، فيما رواه مسلم، عن أبي ذَر الغفاريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه « يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا » (٢)

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » (٣)

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

والظُّلمُ ظلمات: (الأول) ظُلم النفس: وأعظمُه الشركُ بالله، كما قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، ثم يليه المعاصي على اختلافِ أجناسها من كبائرَ وصغائر. (والثاني): ظُلم العبد لغيره.

وعلى المسلم أن يتوقّى الظلمَ بجميع صُوَره، سواء ما اقترفه في حقِّ نفسه - بمعصية الله ورسوله - أو ما اقترفه في حقِّ الغير من دمٍ أو عِرْضٍ أو مالٍ.

روى البخاريُّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ [2] الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ » [3]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ اقْتَطَعَ [4] حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ [5] » [6]

أخي المسلم: إننا نَمُرُّ بالحياة الدنيا ولا نُقيم. ونحنُ فيها نُمتحَنُ ونُختبَر ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ

---

(١) لقمان: من الآية ١٣.

(٢) أي يطلب منه أن يسامحه ويعفو عنه.

(٣) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب مَن كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، رقم ٢٢٦٩.

(٤) أي امتلك حق أخيه المسلم ظلماً بالحلف الكاذب.

(٥) نوع من الشجر يُتخذ منه السواك.

(٦) مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم ١٩٦.

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (١)

والنفسُ أمَّارةٌ بالسُّوء، مُتطلِّعةٌ راغِبةٌ. إن أفلتَت من ضوابطِ الشرع، طلبت ما ليسَ لها، ووقعت في ما لا يَحِل.

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها رغبت، وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنع.

والناسُ تفتنهم زينةُ الحياة الدنيا، ويُلهيهم الأملُ وحُبُّ التكاثر.

وقد يُصابون بالغفلة التي ينقضي معها العُمر، ويَمُرُّ الأجلُ الذي يستطيع الإنسانُ فيه أن يراجعَ نفسَه، وأن يُخلِّصها بين يدي الله ﷻ.

لذَا وَجَبَ على الإنسان أن يكونَ دائمَ الحسابِ لنفسه، وأن يعرض أمرها على شَرْعِ الله، فلا يقبل لها إلاَّ ما أَحَلَّ؛ فمن الظلم أن تمضي وراء الرغائب دونَ نظرٍ إلى النتائجِ والعواقب، فكم من لذَّةٍ ذهبتْ وبَقِيَت تبعتُها.

ومن الخداع للنفس إغراؤها بالغنى الكاذب هنا وهي مفلسةٌ هناك. وإفلاسُها يأتي من ظُلم الناس، والإساءة إليهم. روى مسلمٌ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (٢)

---

(١) الملك: ١، ٢.

(٢) سبق تخريجه.

ومن حقِّ المسلم على أخيه أن يُعينه في دَفع الظلم الواقعِ منه أو عليه.

بهذا أمرنا رسولُ الله ﷺ، وحذَّرنا من التقصير في أداءِ هذا الواجب.

روى البخاريُّ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنْ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (١)

وروى أبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ، عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « يا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ... الآية ﴾ (٢)، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ » (٣)

أخي المسلم: إنَّ الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة. وإن الظالم يُمْلَى له، ولا يُترَك « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » (٤)، وإنَّ دعوةَ المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، فهي منصورةٌ مُستجَابَة. وإنَّ كُلَّ عملٍ - مهما صَغُرَ - لا بُدَّ أن يوفَّى صاحبُه جزاءه ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٥)

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) المائدة: من الآية ١٠٥.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، رقم ٤٣١٨.

(٥) الأنبياء: من الآية ٤٧.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ (١)

وفي الحديث المُتَّفق عليه، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى "ابْنَ اللُّتَبِيَّةِ" فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا. ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللَّهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي ! أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ. وَاللَّهِ، لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ (٢)، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ (٣)، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ (٤)، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » (٥)

* * *

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) رغاء: صوت الإبل.

(٣) خوار: صوت البقر.

(٤) تيْعر: أي تصيح، والْيُعار: صوْت الشّاة.

(٥) البخاري: كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليُهدَى له، رقم ٦٤٦٤.

الحياة في نظر المسلم

أخي المسلم:

إنَّ الحياةَ تحتاجُ إلى نظرةٍ مُتَدَبِّرَةٍ، تُحقِّقُ العبرةَ، وتُثيرُ الخشيةَ.

إنَّ الإنسانَ قد جاء إلى الحياةِ الدنيا بأمْرِ ربِّه، وسيخْرُجُ منها بأمره.

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

والمسلمُ - بعقيدته - لا يرى الحياةَ هذا العُمُر المحدود المكدود فحسب، إنه يراها أبْعَدَ من ذلك. يَرَاهَا موصولةً لا تنقطع والإنسانُ ينتقل من مرحلةٍ إلى مرحلة.

وفي آياتٍ متتابعات من سورة (المؤمنون) تُذْكَر هذه المراحل، ويُخاطَبُ بها الإنسانُ؛ ليكون على بيِّنةٍ من أمره وهو يعرفُ حقيقته وغايته ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

صورةٌ كاملةٌ لمراحل السَّيْرِ - مِن خَلقٍ، ومَوتٍ، وبعثٍ - نرى فيها فترةَ الحياة

---

(١) لقمان: من الآية ٣٤.

(٢) المؤمنون: ١٢- ١٧.

الدنيا وقد طُوِيَت، فمِنَ الخَلق إلى الموتِ، بلا فاصلٍ سُوى الثناء على الله.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾ (١)

﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾ (٢)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ﴾ (٣)

إنَّ فترةَ الحياة الدنيا لا تكادُ تُذْكَر. إنها سريعةُ التَّقضي، سريعة الزوال.

والمتدبِّرُ يلحَظُ ذلك وهو يتلو كتابَ الله، ويقفُ عند المَثَلِ المضروب في القرآن:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ۝٤٥ ﴾ (٤)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦ ﴾ (٥)

صورةٌ كاملةٌ لمراحل السَّير، تُحقِّقُ الاتزان والاعتدالَ في سلوك الإنسان، فلا يركن إلى الحياة الدنيا رُكونَ مَن يخلُدُ فيها، ولا ينصرفُ عنها انصرافَ مَن لا يعرف فائدتها، ويُدرك غايتها.

إنَّ أخطرَ المراحل هي مرحلةُ الحياة الدنيا؛ لأنَّ ما بعدها يترتَّبُ عليها.

---

(١) السجدة: ٧.
(٢) المؤمنون: من الآية ١٤.
(٣) المؤمنون: ١٥.
(٤) الكهف: ٤٥
(٥) المؤمنون: ١٥، ١٦.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (١)

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾ (٢)

ولذا فإنَّ عقيدةَ المسلم لا تقفُ به عند حدودِ دُنياه، بل تأمره بالعمل الصالح في دُنياه؛ رغبةً في أُخراه، فيُسرع في الخيرات وهو لها سابق.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (٣)

وما ضَلَّ مَن ضَلَّ إلاَّ بغفلته عن الغَدِ، ونسيانه يوم الحساب.

والغَدُ مقبلٌ لا مَفَرَّ منه، والحسابُ آتٍ لا ريبَ فيه.

ونسيانُ الغَدِ تدميرٌ لليوم والغَدِ (معاً).

وإهمالُ الآخرة خسرانٌ للدنيا والآخرة.

إنَّ الدنيا لا يستقيمُ سعيُها إلاَّ برجاء اليوم الآخر، والآخرة لا تُرجى بغير الإيمان والعمل الصالح في الدنيا.

والحياةُ في الدنيا مؤقّتةٌ، نعرفُ أمرها، ونرى مصيرَ الأحياء فيها. والحياةُ في

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) المؤمنون: ٥٧ – ٦١

الآخرة باقيةٌ ممتدَّةٌ، والإقامة فيها دائمة مُتَّصلةٌ، ولا يمكن لدُنيا الناس أن تسعدَ ببرِّ التعامل وعدلِه وهي تُهمِلُ اليومَ الآخر.

إنَّ قضيةَ الإيمان في الإسلام ليست بمعزلٍ عن الحياة.

إنها تُقدِّمُ في المصنع بالإتقان والإحسان، وفي المتجرِ بالصدق والأمانة، وفي المزرعة بالصبر وحُسن الرعاية. وفي كُلِّ عملٍ بيقظةِ الضمير وخشية الخالق.

ولن يستقيمَ للدنيا أمنُها في غيبةِ الإيمان.

ولن يعصمها من المغابلة والمكاثرة إلاَّ يقينٌ ثابتٌ، وإيمانٌ **بالله واليوم الآخر.**

فالمؤمنُ لا يفقدُ الدنيا وهو يتعلَّقُ بالآخرة ويُحقق **سعيها، ولكن** يوفِّرُ أمنَها وهو يتَّصفُ بصفات الإيمان. ويمنحها رُشدَها وهو يعلم أن الدار الآخرة **هي الحيوان، وأنها** لا تُنال إلاَّ بعملٍ صالح وإيمان. فلا تعدُّد، ولا تواكل، بل حركةُ حياةٍ لا تهدأ، وفطرة رشيدة تتخذ من تعمير الدنيا واكتشاف مكنوناتها سبيلاً إلى الخشوع للخالق والتوصل إلى مرضاته.

والعملُ - في ظلِّ الإيمان بالله واليوم الآخر - ليسَ **لغرضٍ محدود، أو رغبةٍ** طارئة، يتوقَّفُ إذا تحقَّق الغرضُ، وينتهي إذا انتهت الرغبةُ. **إنه موصولٌ ما دامت** الحياةُ، مُتَّصلٌ لا يعرف اليأس ولا القنوط، فلا يكون المؤمن - **أبداً - صريعَ ألمٍ** أو يأسٍ، أو انقباضٍ أو حسرةٍ إذا فات المطلوبُ أو تخلَّف المرغوب.

إنَّ الأمل يمتدُّ ويتسعُ كُلَّما عَظُمَ الكربُ واشتد.

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

(١) يوسف: من الآية ٨٧.

أخي المسلم: إن الحياةَ في عقيدة المسلمِ: عدلٌ، وبِرٌّ، ووفاءٌ، ورحمةٌ، وتعاونٌ، وإخاءٌ. وهي صفاتٌ لا بُدَّ منها لتحقيق الأمن الصادق والسِّلمِ البار. صفاتٌ لا يُحققها إلاَّ الإيمان. الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فهو الضمان لعصمة الدنيا من الشرور والفساد واتِّباع الهوى المُضِل عن سبيل الله. هو الضمان لتعاون الخَلق على البِرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

إن الحياةَ في نظر المسلم هي الدار الآخرة، وإيمانه بها يحقق للدنيا أَبَرَّ ما ترجوه من أمنٍ، وما تنشده سَلامٍ.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (١)

* * *

(١) المؤمنون: ٦٠، ٦١.

obeikandl.com

ذلك يوم التغابن

أخي المسلم:

إنَّ الإنسانَ يُدعَى إلى دار المتقين (الجنة)، يُدْعَى إليها من هنا؛ ليسعى سَعيَها، ويُقدِّمُ ما يدلُّ على إيمانه بها. وما أسرعَ ما ينتقل الإنسانُ من دُنياه إليها.

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

والفوزُ - كُلُّ الفوزِ - لِمَنْ زُحزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنةَ، والخسارةُ - كُلُّ الخسارةِ - لمن خَسِرَ نفسَه وأهلَه هناك.

---

(١) يونس: ٢٥- ٢٧.

(٢) التغابن: ٩، ١٠

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

والقرآن الكريم يُحدِّثنا عمَّا يقعُ بين الناس في أُخراهم وهم يتساءلون أو يتلاوَمُون، فكَم من حديثٍ بين المؤمنين في جنَّاتِ النعيم ينقله إلينا؛ ليُطمِّعنا فيها، وحديث بين أهل النار - أو بينهم وبين أهل الجنة - نرى فيه حسرةَ أهل النار ونَدمَهم على تفريطهم.

وكُلُّ ذلك يُخاطَبُ به الناسُ في الدنيا ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (٢)

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٣)

والكُلُّ راجعٌ إلى الله ومُحاسَبٌ بين يديه.

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٤)

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٥)

---

(١) الزمر: من الآية ١٥.
(٢) الأنفال: من الآية ٤٢.
(٣) الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٤) هود: من الآية ١٠٣.
(٥) الأنعام: ١٢.

ويَا وَيْلَ مَن كذَّب بهذا اليوم أو غَفَلَ عنه حتى دنا الموت منه.

وآيات الله الدَّالة عليه يراها في نفسه، وفي الكون من حوله.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ [1]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [2]

أخي المسلم: فلنتدبَّر كتابَ ربِّنا وهو يُحدِّثنا عمَّا نحن **مُقبلون عليه** من حسابٍ وجزاءٍ حديثاً تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربَّهم، وهو حديثٌ **يُحقِّقُ لدُنيا الناس** - المحبوبةِ المرغوبةِ - ما تصبُو إليه من أمْنٍ وسلامٍ؛ إذْ به يكُفُّ الإنسانُ شرَّه عن غيره، ويُقدِّمُ خيرَه؛ ابتغاء وجه ربِّه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [3]

إنَّ صفاتِ الإنسان - أخلاقه المستمدَّة من صِدق إيمانه بربِّه وخشيته منه - هي التي قدَّم بها السلامَ بين الناس بلا غدرٍ، ولا خيانةٍ، ولا نقضٍ لعهودٍ أو مواثيق.

ومَن فَقَدَ إيمانه بربِّه، فَقَدَ وفاءَه لخلقه.

---

(١) مريم: ٦٦، ٦٧.

(٢) الأحقاف: ٣٣.

(٣) المؤمنون: ٦٠، ٦١.

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

فَقَدُوا إيمانَهم، ففقدوا الأمانةَ والصدقَ، والبرَّ والوفاءَ. عاشوا للعاجلة فلم يبالُوا بظُلمٍ أو غدرٍ أو خيانةٍ، ورغبوا في المنفعة وطلبوها من أيِّ سبيل !

وا حسرتاه عندهم إنْ فاتهم المطلوبُ، أو ذهب المرغوبُ، وتحوَّلت دُنيا الناس - عند هؤلاء - إلى غابةٍ سَادَتْهَا أصحابُ الظُّفْرِ والنَّاب، وضحاياها الصغارُ والضعاف، ولون الحياة دماءٌ وعظامٌ وأشلاءٌ، وعنوانها حضارةٌ وعِلمٌ، وختامها تعاسَةٌ وسُوء عاقبة.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢)

لا. لا. إنَّ الإنسانَ قيمةٌ لا زينة. وقيمتُه في إيمانه ويقينه، وفي معاملته للمخلوقات من حوله. ولا يُميِّزُ الإنسانَ عن غيره إلاَّ إيمانُه بما عند ربِّه. به تسمو فضائلُه، ويحيا في الأرض جندي حَقٌّ وعدلٍ.

وغاية عالية يبذل فيها نفسه وماله؛ ليَنعم الناسُ من بعده بإعلاء كلمة ربِّه.

أرأيت ما قاله عبدُ الله بن رواحةَ لرسول الله ﷺ عند بيعة العقبة، قال: يا رسول الله، اشترطْ لربِّك ولنفسك ما شئتَ. قال: أشترطُ لربِّي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، واشترطُ لنفسي أنْ تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالَكُم. قال: فَمَا لَنَا إذا نحنُ فعلنا ذلكَ ؟ قال: الجنة. قال: رَبِحَ البيعُ، ولا نقل ولا نستقل.

إنه رِبْحُ البيع. فهل تعي أمَّتُنا الإسلاميةُ سبيلَ عزِّها ومَجدها ؟

---

(١) الأنفال: ٥٥، ٥٦.

(٢) الإنسان: ٢٧.

الجنة وأثرها في السلوك

أخي المسلم:

الحديث عن الجنة في القرآن الكريم يأتي بياناً لجزاءِ مَن آمنَ وعَملَ صالحاً.

ووعدُ الله حَقٌّ، والجنةُ حَقٌّ.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ (١)

والإيمانُ بالآخرة وما فيها له تأثيرُه البالغ في سعي الإنسان وعمله. وشتَّانَ ما بين مؤمنٍ بلقاء ربِّه، حريصٍ على مرضاته، وبين مُلْحِدٍ لا يرى الحياةَ إلاَّ في المنظور المشاهَد. ومن يؤمنُ بالله واليوم الآخر تطيبُ الدنيا بسعيه، وتشرُف بعمله، وتأمن بإيمانه، ويُرَى حيث ينشده الواجب، ويُريده الحقُّ، غير مَانٍّ ببذلٍ أو عطاء، غير ضانٍّ بنفسٍ أو مالٍ.

يُسْمَعُ من رسول الله ﷺ - وهو ميدان بدرٍ -: « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ »، فيقول "عُميرُ بنُ الحُمام": وقد سمعها من فمِ الصادق الأمين ﷺ: « يَا رَسُولَ اللَّه، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوت وَالأَرْضُ ؟ »، فيقول الرسول ﷺ: « نَعَم »، يقول عميرُ بن الحمام: « بَخٍ بَخٍ » وهي كلمةٌ تُقالُ للتعجب من الشيء؛

(١) مريم: ٦٠- ٦٣.

لمدحه واستعظامه. فيقول الرسولُ ﷺ لعمير: « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ ؟ »، فيقول عمير: « لا - وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا » فيقول ﷺ له: « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا »، عندئذ أخرج عميرُ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِه، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: « لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ » ثم رَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. (١)

(**الجَنَّـــةُ**) ذُكِرَت فطابت النفسُ بها، وسارعت إليها، وساقها اليقينُ إلى السَّبْقِ حتى رأت أنَّ الحياةَ طويلةٌ إنْ هي بقيت حتَّى تأكل تمراتٍ لا يستغرق **أكلُها إلاَّ دقائق** معدودات.

(**الجَنَّـــةُ**) من أجلها تُقبِلُ النفسُ على المخاطر، وتهون **في سبيلها** المكاره، وتُبذل الأنفسُ والأموال.

(**الجَنَّـــةُ**) سلعةُ الله الغالية (٢) أيقَنَ بها المتقون، فلم يسألوا الله **غيرها**، و لم **تتطلع** أعينُهم إلى **سواها**. فرأت الدنيا منهم أبَرَّ الأعمال وأكرَمها. لم **تفتنهم زهرةُ الحياة**، و لم **تأسرهم** زينتُها، و لم تصرفهم الرغائبُ عن العواقب.

كم تطاوَلَ فرعونُ بماله ومتاعه، وتفاخر بمُلكه، وامرأته **لا تُشغَلُ بشيءٍ** من ذلك، ولا ينفذ إلى قلبها إغراءٌ أو زينةٌ زائلة، بل تُقَلِّبُ وجهَها هناك، حيث الخلود والبقاء، والسلامةُ والأمن، وتقول: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ٣٥٢٠.

(٢) راجع سنن الترمذي: **كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض**، رقم ٢٣٧٤.

فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

بل نرى فرعونَ - وهو مَن هُوَ في كبره وعُتوِّه - نراه وقد تداركه الغرقُ يقول: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٢) يقول ذلك بعد فوات الأوان ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣) ولذا أُجيب:

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٤)

وما ذاك إلاَّ لأن الإسلامَ - في بداية الأمر ونهايته - هو المنقذُ للإنسانية - بإذن الله - من الدمار والهلاك، وإليه يركن الجميعُ في ساعة الشدة؛ طلبا للنجاة؛ ولأنَّ شيئاً غيره لا يُقبَلُ عند الله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٥)

إنَّ شيئاً غير الإسلام لا يمكن أن يُقبَلَ، ولا أن تستقيم معه أحوال الناس.

إنه ليس غريباً على الكون، ولا دخيلاً على فطرةِ الإنسان؛ فالكونُ كُلُّه مسلمٌ بفطرته، مُسبِّحٌ بحمد ربِّه.

---

(١) التحريم: من الآية ١١.
(٢) يونس: من الآية ٩٠.
(٣) غافر: ٨٥
(٤) يونس: ٩١، ٩٢.
(٥) آل عمران: ٨٥.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

إنه دينُ الله ربِّ العالمين إلى الناس أجمعين. فيه هدايتُهم من الضلال، وعصمتُهم من الدمار.

إنه دينُ الحياة، يحيا به الإنسانُ منفعلاً بأسباب الرحمة، **متفاضلاً بخُلُقِ التراحم.**

دينٌ مُوجَّهٌ إلى الإنسانية جميعاً - في أيِّ زمان وفي أيِّ مكان - لصبغتها بصبغة تُمكنها من أن تحيا بقلبٍ وضمير، وعلى هديه تجدُ الإنسانيةُ سلامَها المفقود، وتخرج من ظلمات الحيرة والقلق، إلى نور الطمأنينة واليقين، ومن فُرقَةِ السُّبُل إلى الصراط المستقيم.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٢)

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ

---

(١) الإسراء: من الآية ٤٤.
(٢) الأعراف: ١٥٨.
(٣) المائدة: ١٥، ١٦.

ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم:

مَا زَالَ حَدِيثِي مَعَكَ عنِ (الجَنَّـــةِ) التي هيَّأ الله لنا سبيلَها، ودعانا إليها، ورغَّبنا فيها، وقرّبها للمتقين، وجعل سَعيها في الدنيا؛ لتنعم الدنيا بصفاتِ أهلِ التقى وأعمالهم.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

كَم من صابرٍ على بلاءٍ؛ طمعاً فيها، ورجاءَ أن يكون من أهلها.

في الحديث الْمُتَّفَقِ عَلَيْه عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: « أَلا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا » (٣)

اللهُ أكبرُ. إنها الجنةُ، رغبَت فيها فصبرت، ولم تُبال بما أصابها، واكتفت بأن طلبت السِّتر، فدعا الرسول ﷺ لها، ومشت بين الناس وهي يُشارُ إليها بما اختارت بوعد الصادق ﷺ « إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ »

---

(١) الأنعام: ١٥٣.
(٢) الإسراء: ١٩.
(٣) البخاري: كتاب المرضى، باب فضل من يُصرع من الريح، رقم ٥٢٢٠.

obeikandi.com

شغلتها الجنةُ، فَرَغِبَت فيها، وآثرتها على عافيةٍ موقوتة. رغبت في الحياةِ الباقية وآثرتها، فربحت، وانتقلت إليها في عافيةٍ وطمأنينةٍ، وأمنٍ ورِضًى.

﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

تسمو النفسُ وتعلو بفضائلها، وتقْوى العزائمُ والهِمم، ويقوى اليقينُ والرجاء، فتسأل اللهَ الفردوس الأعلى، وبرحمته تُنَال، وبفضله تُعطَى.

وأصحابُ الهِمم العالية لا يُقعدهم الإغراءُ عن عظائم الأعمال، ومنهم من رجا الله أن يطَأَ بعَرْجَته الجنةَ، فكان ما أراد، ورزقه الله الشهادةَ، فقُتِل يوم (أُحُدٍ)، ومنهم من كانَ يجد ريحَ الجنة دونَ (أُحُد)، فكانت باعثَ خيرٍ وثباتٍ وقوَّة، فنادى أنسُ بن النضر سعدَ بن معاذ قائلاً: « يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ » قَالَ سَعْدٌ - وهو يحكي لرسول الله ﷺ -: « فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا صَنَعَ ؟ قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ » (٢)

---

(١) الزخرف: ٦٨ – ٧٣.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، رقم ٢٥٩٥.

الجنةُ جديرةٌ أن تُقدَّم لها الأنفس؛ لتحيا.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [1]

اللهم أنا نسألك رضاكَ والجنة، ونعوذُ بك من سخطك والنار.

* * *

(١) التوبة: ١١١.

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
* لماذا الإسلام ؟.....	٥
* الإسلام دين الرسل جميعاً.....	٩
* حاجة الإنسانية إلى الإسلام (١).....	١٣
* حاجة الإنسانية إلى الإسلام (٢).....	١٧
* منهج القوة في الإسلام.....	٢٣
* علاقة المسلم بغير المسلم.....	٢٨
* الإيمان والحياة.....	٣٤
* الإيمان بالقَدَر: آثاره ونتائجه.....	٣٨
* الصوم آثاره ونتائجه (١).....	٤٢
* الصوم آثاره ونتائجه (٢).....	٤٧
* وأذِّن في الناس بالحَجِّ.....	٥١
* الحج أُلفة للقلوب، وإخاء للنفوس.....	٥٤
* الحج تعبير عن وحدة المسلمين.....	٥٧
* كيفية الإحرام ودلالته.....	٦٢
* يوم الضراعة والإنابة.....	٦٥
* فرحةُ العيد.....	٧٠
* يسِّروا ولا تُعسِّروا.....	٧٩
* مسئولية البيت في تربية الفرد (١).....	٨٤
* مسئولية البيت في تربية الفرد (٢).....	٨٧
* السبيل لإعداد إنسان الغد.....	٩١

obeikandl.com

الموضـــوع	الصفحة
* إنسان الغد وما يجب أن يكون عليه.....	٩٤
* الأخوة الإسلامية (١).....	٩٨
* الأخوة الإسلامية (٢).....	١٠٣
* البرُّ حُسْنُ الخُلق.....	١٠٧
* برٌّ يجبُ أن يسُود.....	١١٣
* صنائع المعروف.....	١١٧
* الوصية بالجار.....	١٢١
* دلالة النعمة في حياة الناس.....	١٢٥
* اذكروا نعمةَ الله عليكم.....	١٢٩
* الإنسان بين الرخاء والشدة.....	١٣٣
* تعرَّف على الله في الرَّخاء.....	١٣٧
* من فقه المؤمن.....	١٤٢
* اعتدال النفس بين الرجاء والخوف.....	١٤٥
* ومن شكر فإنما يشكر لنفسه.....	١٤٩
* الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون.....	١٥٣
* الكلمة وخطرها.....	١٥٦
* عليكم بالصدق (١).....	١٦١
* عليكم بالصدق (٢).....	١٦٥
* دروس من يوم الفتح.....	١٦٩
* أخلاق المجاهدين.....	١٧٤
* من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعنيه.....	١٧٨

obeikandl.com

الموضـــوع	الصفحة
* أنزلوا الناسَ منازلَهم.....	١٨٣
* الذكر في حياة المسلم.....	١٨٨
* هُمُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهم.....	١٩٣
* وبالأسحار هم يستغفرون.....	١٩٦
* في كُلِّ كَبِدٍ رَطِبَةٍ أَجْرٌ.....	٢٠٠
* تجربة التاريخ.....	٢٠٥
* ترابط المسلمين بين دوافع الإيمان ونوازع الشهوات.....	٢٠٨
* حديث يجب أن يُتدبَّر.....	٢١٢
* ثبات وحكمة في مواجهة الأحداث.....	٢١٥
* ولا تهنوا ولا تحزنوا.....	٢١٩
* مجاهدة النفس.....	٢٢٤
* كُلُّ الناس يَغْدُو.....	٢٢٨
* إنما الدنيا لأربعة نفر.....	٢٣٣
* الظلم ظلمات.....	٢٣٧
* الحياة في نظر المسلم.....	٢٤٢
* ذلك يوم التغابن.....	٢٤٧
* الجنة وأثرها في السلوك.....	٢٥١
فهرس الموضوعات	٢٥٩

تَمَّ الكِتابُ بِحَمْدِ الله

obeikandl.com